نايل أبو شقرا *

البنى السكانية في جبل لبنان ١٢٥٠ ـ ١٨٥٠: تحوّلات ونتائج

يهدف هذا البحث الى التشكيك بمقولة «جبل لبنان ملجأ الأقلّيات»؛ إذ إن هذه المقولة تحمل اليوم تساؤلات عن أسباب المتغيرات السكانية في جبل لبنان: هل هي إرادية أم أنها نتيجة ممارسات دينية تم إظهارها كبدائل لفشل العلاقات السياسية والاقتصادية بين السلطات الحاكمة والجماعات الدينية من ناحية والجماعات في ما بينها من ناحية أخرى. وقد عجزت هذه المتغيّرات عن أن تبلور وحدة مجتمعية يتوافر فيها الحد الأدنى من العدالة الاجتماعية وشروط التعايش.

إن ماضي جبل لبنان لا يشجع على التفاؤل بالمستقبل، ولاسيما أن الانتماء الديني والمذهبي لجماعات جبل لبنان التي كانت قد اتخذت هذا الجبل موطناً لها بقي محكومًا بعقائدها الدينية. ولذلك، فإن الممارسات التي قامت بها السلطة السياسية غير المنفصلة عن بيئتها الأيديولوجية هدفت الى معاقبة هذه الجماعات نتيجة مساراتها السياسية الخاطئة.

وعليه، يثير هذا البحث مسألة اجتياح ناحية كسروان في جبل لبنان وتهجير أهله على خلفية اتهامهم بمحاربة المسلمين والتعامل مع الفرنج. أمّا عندما يتعلق الأمر بالإنماء الاقتصادي للدولة، فإن الجماعات الطائفية كانت تمارس حريتها في الانتقال والتوطن أينما شاءت ، إلّا أن هذا التوطن كان مشروطاً بإرادة الأكثرية الطائفية التي استخدمت في حالة جبل لبنان الموارنة بصفتهم قوى إنتاج في إنماء ريعها العقاري والتوسّع لاستحداث مناطق زراعية جديدة، وعندما اختلّت التوازنات الديموغرافية والاقتصادية عند الدروز بدأت صيغة الحكم تتحوّل باتجاه رسم معالم سياسية جديدة للجبل محورها الموارنة، الأمر الذي دفع الطائفتين الدرزية والمارونية إلى مواقع صراع. والسبب الجوهري في ذلك هو أن تأسيس الشراكة بين الطائفتين قام ظاهرياً على أساس مصالح اقتصادية متبادلة كان يخفي المشهد الديني الذي كان حاضراً في ضمير كل طائفة، وعندما عجزت الحلول السياسية عن تأمين التحوّلات الحتمية باتجاه الأقوى، كان استثمار الدِّين مبرراً لاستعادة الحق الضائع.

* باحث لبناني .

أولاً: جبل لبنان المفهوم المتغير

تأثر جبل لبنان، كغيره من بلدان المشرق العربي، بالعوامل السياسية التي كانت قائمة في عهد المماليك (١٢٥٠ هـ/ ١٥١٧م)، فكانت حدوده طرابلس[١] إلى صيدا[٢] جنوبًا، والبقاع[٣] ووادي التيم[٤] وبعلبك[٥] شرقًا، والعاصمة بيروت[٦] والبحر المتوسط غربًا. وقد أُطلقت تسمية «جبل لبنان» على قسم من جبل الشيخ[٧] الذي يشكل سلسلة لبنان الشرقية، وبعد عام ١٥١٦م انسلخ من جنوبه واستقل بتسمية لها رمزيتها، وهي لبنان[٨]، فاكتسب هويتين جغرافيتين: «لبنان»، إضافة إلى «جبل لبنان»، في حين تماهى الدِّين مع الجغرافيا في جنوبه، فأضفى على الجبل هوية طائفية، وبات جنوبه يسمّى «جبل الدروز». وكانت ناحية كسروان[٩]، التي سنتناولها في هذه الورقة، تقع في الوسط الجغرافي للبنان، وكانت قبل القرن السادس عشر تابعة لجبل لبنان حينًا ومنفصلة عنه حينًا آخر.

وفي عام ١٨٤٢، وتحت وطأة الحوادث الطائفية بين الموارنة والدروز، قُسم جبل لبنان إلى قائمقاميتين: واحدة مسيحية في شماله، وأخرى درزية في جنوبه، ويفصل بينهما طريق بيروت – دمشق. إلاّ أن تفاعل الحوادث أدى في العام ١٨٤٢ إلى نشوب حرب أهلية (١٨٤٢– ١٨٦٠) بين الدروز والموارنة، أفضت إلى تدخّل سياسي خارجي كان من نتائجه وضع نظام سياسي لجبل لبنان عُرف بـ «نظام المتصرفية». وبعد دخول القوات الفرنسية إلى لبنان، أُلغي ذلك النظام ووضِع لبنان تحت الانتداب الفرنسي عام ١٩٢٠ وأصبح جمهورية.

ثانيًا: جماعات جبل لبنان

من المسلَّم به أن البحث في الحوادث التاريخية يفترض أن يكتسب مداه المعرفي، بعد أن دفع علم الاجتماع بمصطلحات أخرجت علم التاريخ من الصياغة السردية المفصّلة إلى المستوى العلمي التحليلي الهادف، بحيث إن هذا العلم بات وعلم الاجتماع أسّين متكاملين في بناء رسم الحادث التاريخي. وعليه، فإن منطلقات البحث عن الحقيقة الممكنة يجب أن تتخذ عدة مسارات متلازمة، اجتماعية وسياسية واقتصادية، بما يؤسس لقراءة إنسانية غير مؤدلَجة. من هنا كان توصيف سكان جبل لبنان بـ «الجماعات»؛ إذ إن البُعد المجتمعي نراه قاصرًا عن جلاء الحقيقة التاريخية في حالة جبل لبنان. ويعزّز هذه النظرية جاك لومبار، الذي تناول في نصوصه الجماعة على

---

١ عاصمة لبنان الشمالي.
٢ عاصمة لبنان الجنوبي.
٣ يشكل اليوم إحدى المحافظات اللبنانية.
٤ حاليًا قضاء يتبع محافظة البقاع.
٥ حاليًا قضاء يتبع محافظة البقاع.
٦ كانت بيروت في عهد الإمارة المعنية تابعة لجبل الدروز، وفي العهد الشهابي تداولها العثمانيون والأمراء الشهابيون، وأصبحت بعد عام ١٨٦١ ولاية حتى خروج العثمانيين عام ١٩١٨ .
٧ جبل الشيخ أو حرمون أو سنير، اسم أُطلق على القسم الجنوبي من سلسلة جبال لبنان الشرقية.
٨ ايرونيموس دنديني، **رحلة الأب ايرونيموس دنديني الى لبنان سنة ١٥٩٦**، عربها الخوري يوسف يزبك يزبك (بيت شباب، لبنان: مطبعة جريدة العلم، ١٩٣٣)، ص ٣٥.
٩ أحد الاقضية التابعة لمحافظة جبل لبنان .

أنها[١٠] الجماعات الصغيرة الحجم، وتربطها أواصر القرابة وتنظيمات تفتقد الخصوصية السياسية، كأن تكون «جماعة» قرابية، أو تنظيمات فخذية وبطنية تقوم بالدرجة الأولى على التضامن والعصبية، أو الجماعات النسبية التي تقوم على التضامن بين جماعات قرابية، و«الجماعات» التي يتم الاحتكاك بينها. وعندما يستخدم لومبار مصطلح مجتمع ومجتمعية، فهو يعني به تحديدًا الجماعة عند قوله: «الظاهرة المجتمعية هي ظاهرة جماعية تستنفر المجتمع بأسره لا بعض الجماعات فقط، أي إنها ظاهرة معنية بمختلف قطاعات الواقع المجتمعي». واستخدم مصطلح «المجتمع» باعتباره حالة ناتجة من مساهمة كل مؤسسة وكل جماعة أو «سستام» مجتمعي في الحفاظ على استمرارية المجتمع. ولذلك فإن «الجماعة» تقوم على صيغ اجتماعية قرابية وعصبية تتفاعل وتنمو ضمن شبكة معقَّدة من العلائق لتشكل الطائفة، وتسلتزم إراديًا شروطها وعاداتها وتقاليدها وأنماط عيشها. وعلى السلّم التطوري ذاته، ربما يرتقي المجتمع إلى ما فوق وضعية "الجماعة"، فيكتسب صفة التنوّع لتشكُّله من جماعات عدة تنضوي تحت نظام سياسي واحد يسمح لها بانزياحات ثقافية قد تؤدي إلى التواصل أحيانًا أو إلى التصادم أحيانًا أخرى. ولذلك لم يتردّد المؤرخ الاجتماعي شوفاليه في تبنّي ترجمة كلمة «طائفة» بمصطلح «الجماعة الطائفية» (communauté confessionnelle)[١١].

يرتقي باحثو الإناسة البنيانية إلى المواقع الدلالية المعاينة، حيث يقدمون مصطلح الجماعات كمرادف للطائفة. والنصوص الدينية تجسد نماذج من هذا المصطلح؛ فالأسفار التوحيدية الدرزية تصف سكان «الجبل الأنور» (جبل السماق) بالجماعة، كما خوطب الدروز بـ«جماعة الموحِّدين»[١٢]. وأشار صاحب **تاريخ بيروت**[١٣] إلى «جماعة وادي التيم»[١٤] الدروز، وهذه الشواهد تؤكد أن مصطلح الجماعة قُصد به أتباع ديانة معيّنة، وقُصدت بدرجة أقل المجتمعات التي ما زالت قائمة على حماية خصائصها المحكومة بالحفاظ على كينونتها، مع العلم أن رغم استخفاء مصطلح الجماعة كمظهر وصفي نافر فإنه لم يزل يقدّم الشواهد على تماسكه في المجتمعات الإسلامية. ومع هذه الدلالات المعبّرة يُفهم لماذا تأخذ حروب الطوائف سماتها الدموية، وكأن جهادًا دينيًا مشروعًا يكمن في وجه من وجوهها. أوَليس هدف قتال الطوائف بعضها ضد بعض هو الذود عن الأقدسين: الدِّين والعِرض؟

ثالثًا: الجغرافيا الدينية في جبل لبنان

كان للانشقاق الكبير الذي حدث بعد موت الإمام السادس جعفر الصادق عام ١٤٨هـ أن انقسمت شيعته إلى فِرق كثيرة، أكبرها وأشهرها اثنتان، **أُولاهما** جعلت الإمامة في موسى الكاظم بن جعفر الصادق، وعُرفت

١٠ جاك لومبار، **مدخل إلى الأثنولوجيا**، ترجمة حسن قبيسي (بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٧)، ص ٦٩، ٨٦، ٩٢، ١٠٢، ١٥٠، ٢٢٦، ٢٢٧_٢٢٧ و٢٣٦.

١١ دومينيك شوفاليه، **مجتمع جبل لبنان في عصر الثورة الصناعية في أوروبا**، ترجمة منى عبد الله عاقوري. وانظر في الترجمة أحمد بيضون: دومينيك شوفاليه، **مجتمع جبل لبنان في عصر الثورة الصناعية في أوروبا**، نقلته عن الفرنسية منى عبدالله عاقوري؛ نظر في الترجمة احمد بيضون (بيروت: دار النهار، ١٩٩٤)، ص ١٨.

١٢ **رسائل الحكمة**، ص ٨٣٤ .

١٣ صالح بن يحي، من أسرة آل بحتر التنوخية التي سيطرت على منطقة الغرب من ولاية بيروت، وقد ألّف تاريخًا جمع فيه أخبار أُسرته من المستندات الخطية والروايات الشفهية، من أوائل عهدها في إمارة الغرب إلى أيامه في النصف الأول من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي. انظر: ابن صالح بن الحسين صالح بن يحيى، **تاريخ بيروت، وهو أخبار السلف من ذرية بحتر بن علي أمير الغرب بيروت**، أشرف على تحقيقه فرنسيس هورس اليسوعي، كمال سليمان الصليبي؛ بالاشتراك مع انطوان كوت [وآخرون] (بيروت: دار المشرق، ١٩٨٦)، مقدمة المحققين، ص ٣-٤.

١٤ **رسائل الحكمة**، ص ١٨٥ .

بالشيعة الاثني عشرية[١٥]، **وثانيتها** جعلت الإمامة في إسماعيل بن جعفر الصادق ثم في ابنه محمد بن إسماعيل وولده من بعده، فعُرفت بالإسماعيلية، والاسم الذي جمع أتباع المذهبين «الرافضة». وعلى هذا الانقسام ترتب تاريخ مليء بالصراعات والحوادث السياسية والأمنية؛ فبعد أقل من قرن واحد على هذا الانشقاق، تبلور فكر إسماعيلي بلغ شأوًا كبيرًا مع خلافة المعز لدين الله الفاطمي. وتشير النصوص التاريخية إلى أن الإسماعيلية[١٦] عُرفت أحيانًا بـ «القرامطة» و«الباطنية»[١٧] إلى غير ذلك من صفات، وليس هناك ما يشير إلى أن القرامطة كان

١٥ الشيعة الاثني عشرية، وهي التي تؤمن باثني عشر إمامًا معصومين ومقدَّسين، أولهم علي بن أبي طالب وآخرهم محمد القائم المهدي، الشخصية التي تُدعى القائم بالقيامة، القائم المنتظر، حجة الله الرب، غير المنظور لهذا الزمن، الإمام المستور المولود في سامراء عام ٢٥٥هـ / ٨٦٩ م. وتعتبر الإمامية الاثني عشرية أن مفهوم الإمامة أرفع من مفهوم النبوة، فالرسول وظيفته بيان الهداية التشريعية، والإمام وظيفته بيان الهداية التكوينية. كما أنها تعتبر أن الإمامة من أصول الدِّين، وأن الإمام الثاني عشر (المهدي) سيظهر في آخر الزمان ليملأ الأرض قسطًا وعدلاً بعدما مُلئت ظلمًا وجورًا. والإمامة كانت، ولم تزل موضوع خلاف جوهري بين السنّة والشيعة؛ ففي حين ينظر إليها أهل السنّة والجماعة على أنها إمارة أو خلافة ظاهرية تقتصر على إدارة البلاد والعباد ظاهرًا، وحافظة للظاهر دون الباطن، يرى فيها الشيعة أنها ولاية وسلطنة إلهية على العباد، وهي تشمل الولايتين التكوينية والتشريعية التي منها الإمارة والخلافة الظاهرية. انظر: هنري كوربان، **الشيعة الاثنا عشرية: في الإسلام الإيراني: جوانب روحية وفلسفية**، ترجمة ذوقان قرقوط، ط ٢ (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٣)، ص ٨٢ و٨٤، ومحمد جميل حمود، **الفوائد البهية في شرح عقائد الإمامية**، ٢ مج (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ٢٠٠١)، ص ١٠، ١٢-١٤ و٢٢٤.

١٦ **الإسماعيلية**: فرقة شيعية نُسبت إلى الغلو، وقد اكتسبت اسمها من إسماعيل بن جعفر الصادق، الإمام السادس من العترة النبوية. وقد اعتبر الإسماعيليون أن إسماعيل هو أكبر أبناء الصادق والأحق بالإمامة بعد وفاة أبيه، في حين يعتبر الشيعة الاثني عشرية أن الإمامة كانت من حق موسى بن جعفر الصادق، لأن إسماعيل كان قد توفي عام ١٤٥هـ / ٧٦٢م، أي قبل وفاة أبيه بثلاثة أعوام. وعُرفت الشيعة الإسماعيلية بـ «السبعية»، لاعتقادها بسبعة أئمة، أوّلهم علي بن أبي طالب وآخرهم محمد بن إسماعيل المتمم للدور السادس. ولا تعتبر الإسماعيلية الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب إمامًا شرعيًا، لذلك فهو لا يرد ضمن الأئمة السبعة. هذا ولم تتوقف الإمامة عند الإسماعيلية، بل استمرت منذ وفاة الإمام السابع محمد بن إسماعيل بن جعفر عام ١٩٧هـ / ٨٢٤م في أربعة أئمة حتى عام ٣٢٢هـ / ٩٤٩م، ثم توالت في الخلفاء الفاطميين حتى القضاء على الخلافة الفاطمية وقطع الخطبة للعاضد لدين الله عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، ولكن تتابع الأئمة الإسماعيلية لم يتوقف؛ فبعد انقسام الإسماعيلية عام ٤٩٥هـ / ١١٠٢م إلى نزارية تعتقد إمامة نزار الذي أقصي عن الخلافة نتيجة مؤامرة تصفها المصادر الإسماعيلية بالدنيئة والمستعلوية، نظرًا إلى أنها رأت صحة إمامة المستعلي ومن قام بعده من الخلفاء في مصر، انتقلت الإسماعيلية النزارية إلى آلموت في الجبال الجنوبية ـ الشرقية لبحر قزوين، حيث أطلقت عليها دراسة حديثة «الإسماعيلية الإيرانية»، وهذه الفرقة لم تتردد في ترجيح الميزان لمصلحة الحقيقة الباطنية على حساب الشريعة، ومن ثم القول بتقدم مقام الإمام على مقام النبي، وكان هذا هو القصد من إعلان القيامة الكبرى (قيامة القيامة) في آلموت في ٨ آب/ أغسطس ١١٦٤م، التي وضعت نهاية لعصر الشريعة. وبعد أقل من قرن، وتحديدًا عام ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م، اجتاح المغول إيران، ودمروا جميع القلاع الإسماعيلية، وقتلوا من فيها، فانتهى بذلك عهد الأئمة الإسماعيلية النزارية في بلاد آلموت لتستقر في أذربيجان. والإمامة الإسماعيلية، بحسب عقيدة هذه الفرقة، ستستمر حتى يوم القيامة وظهور المهدي، فتملأ الأرض به عدلاً وقسطًا كما ملئت جورًا وخبطًا. انظر: مصطفى غالب، **تاريخ الدعوة الاسماعيلية**، ط ٣ (بيروت: دار الأندلس، ١٩٧٩)، ص ٣٩٤ و٣٩٦ (الجدول رقم ٣)؛ محمد حسن الأعظمي، **الحقائق الخفية عن الشيعة الفاطمية والاثني عشرية** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠)، ص ١٣١؛ أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١)، ج ٢، ص ١٦٢ و٣٣٧، وهنري كوربان، **عن الإسلام في إيران: مشاهد روحية وفلسفية**، نقله إلى العربية وقدم له وحقق نصوصه نواف الموسوي (بيروت: دار النهار، ٢٠٠٠)، ص ١٢١.

١٧ **الباطنية**: الباطن لغةً من أسماء الله، وفي التنزيل: هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم (سورة الحديد). وعلوم الباطن هي علوم عقائدية تقوم على التأويل. إن أهل الظاهر يرون أن كتاب الله جاء بلسان عربي بيّن لا رمز فيه ولا لغز ولا باطن ولا إيماء بشيء. ويرى أهل الباطن أن لكل ظاهر باطنًا ولكل لفظ تأويلاً، وأن النصوص إشارات خفية إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة، فهي من كمال الإيمان ومحض المعرفة. والباطنية كلقب، وفاقًا لوصف أبو حامد، هي «الرابط بين الناس وربهم في إعطاء الفيوضات الباطنية ...»، ولم يقصد بها «الصوفية التي ترى أن الكمال في الدِّين يكمن في البحث في المعاني الباطنية للأحكام، بالإضافة إلى معانيها الظاهرية». وهي باطنية لا لأنها نافية الصفات حقيقة، فالمعتزلة نافية للصفات، إذًا هي ذات عقيدة باطنية حادة. يقول الغزالي في ألقابها: «هي عشرة: الباطنية (والقرامطة أو القرمطية، والخرمية أو الخرمدينية، والإسماعيلية والسبعية، والبابكية والمحمرة والتعليمية». أمّا عقيدتها، كما أوضحها الغزالي، هي «إنكار القيامة وقِدَم العالم وإنكار بعث الأجساد، وإنكار الجنة والنار». أمّا ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، فقال عنها: ليس الله عندهم كلام أنزله إلى الأرض بواسطة الملك. فإنه ما قال شيئًا ولا يقول ولا يجوز عليه الكلام ... لا مبدأ عندهم ولا معاد، ولا صانع ولا نبوة، ولا كتب نزلت من السماء تكلم الله بها، ولا ملائكة تنزّلت بالوحي من الله تعالى، فالكتب المنزلة فيض فاض من العقل الفعال على النفس المستعدة الفاضلة الزكية...» لا يقرون بانفطار السموات وقيامة الأبدان، ولا يقرون بأن الله خلق السموات والأرض.... ولكن لإسماعيلية اليوم موقفًا معارضًا، وهو ما تعتبره اتهامات، فهي ليست كما صوّرها كثير من خصومها السياسيين والفقهاء... وإنما هي صفحة نقية من اجتهاد أهل بيت النبي (ﷺ). وأما الاعتقاد في الله =

لهم عقيدة مستقلة؛ إذ لم يتركوا أثرًا مكتوبًا باستثناء بعض المراسلات التي تشير إلى خلافهم مع الخلافة الفاطمية. وشكّلت المرحلة الفاطمية «العصر الذهبي» للإسماعيلية الذين شيّدوا إمبراطورية مترامية الأطراف[١٨]. وكانت هذه الخلافة، بما تملك من قدرات سياسية واقتصادية، تدعم عقيدتها الإسماعيلية من خلال دعاة جابوا معظم العالم الإسلامي، حيث تمذهب أهل الشام والعراق بمذهبهم، ومن بقي على مذهب الشيعة واكبهم في السياسة للاتقاء المصالح. أمّا السنّة، فقد ضعف موقعهم السياسي، ولا سيما أن وزراء الخليفة في العراق كانوا من الشيعة. وعلى مدى الخلافة الفاطمية التي امتدت أكثر من قرن ونصف القرن، كان لها سيطرة كاملة على بلاد الشام، وكان لجناحها المتطرف (القرامطة) أن أمسك بجميع المقدّرات السياسية والاقتصادية فيها. وقد بلغ من نفوذه السياسي والعسكري أن فرض على الخلافة الفاطمية إتاوة سنوية، ولم يخرج من بلاد الشام إلاّ في عام ٣٦٧ هـ / ٩٧٨م، بعد أن ساهم بشكل فاعل في تهيئة الأرضية الشعبية لدعوة التوحيد (الدروز)[١٩]. وخلال أقل من خمسة قرون، وبفعل ضغوطات السلطات الاسلامية المتعاقبة على الإسماعيليين، تحصّن هؤلاء في قسم كبير من جبل لبنان (وسطه وجنوبه)، حيث تقاطعت هويتهم السياسية مع الدروز الذين كانوا انشقوا عنهم خلال القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م. وقد رفض الإسماعيلية والدروز الاندماج في المجتمع الاسلامي؛ إذ كانوا يعتبرون وجودهم مهدَّدًا، وعلى خلاف ذلك كانت علاقتهم بالإمامية الاثني عشرية (الشيعة) تأخذ بُعدًا سياسيًا واحدًا، ولا سيما «أن الشيعة الفاطميين والاثني عشريين كانوا متفقين فيما بينهم على المسائل العامة في الفقه، لأنهم يروون جميعًا عن طريق أهل البيت فيما عدا أمرين أساسيين يقع فيهما الخلاف وهما: مواقيت الصلاة وزواج المتعة...»[٢٠].

= والإيمان بالنبوات ورسالة محمد (ﷺ) بالكتاب المنزَل عليه، فليس بينهم وبين جميع المسلمين في ذلك أدنى خلاف، وإن اختلفوا في تأويل بعض الآي، استنادًا إلى ما ورثوه عن آبائهم الأولين من توجيه مأثور. انظر: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **فضائح الباطنية**، اعتنى به وراجعه محمد علي القطب (صيدا؛ بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٠)، ص ٢١ و٥٢؛ أبو الحسن علي بن عثمان الهجويري، **كشف المحجوب**، دراسة وترجمة وتعليق إسعاد عبد الهادي قنديل؛ راجع الترجمة أمين عبد المجيد بدوي (القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة التعريف بالإسلام، ١٩٧٤-١٩٧٥)، ص ٣٠؛ أبو عبد الله محمد بن ابي بكر بن قيم الجوزية، **إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان**، حققه وكتب هواشيه محمد حامد الفقي، ط ٣ (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤)، ص ٢١٢-٢١٣؛ أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، **الملل والنحل**، تحقيق أحمد فهمي محمد، ط ٧ (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤)، ص ٣٨ و٢٠٣؛ أبو يعقوب إسحق بن أحمد السجستاني، **الينابيع**، تقديم وتحقيق مصطفى غالب (بيروت: المكتب التجاري، ١٩٦٥)، ص ٦؛ **الموسوعة الفلسفية العربية**، رئيس التحرير معن زيادة، ٢ ج في ٣ ([بيروت: معهد الانماء العربي، ١٩٨٦-١٩٩٧])، ص ١٧٧، وعبد الحسين شرف الدين، **المراجعات**، تحقيق وتعليق الشيخ محمد جميل حمود، ط ٢ (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ٢٠٠٥)، ص ٨٩.

١٨ فرهاد دفتري، **مختصر تاريخ الإسماعيليين**، ترجمة سيف الدين القصير (دمشق: دار المدى للثقافة والنشر، ٢٠٠١)، ص ١٣.

١٩ **دعوة التوحيد**: يقوم مسلك التوحيد (الدرزية) على أنه استمرار للنظرة العرفانية من المسالك التوحيدية القديمة، وتطور لتلك التوجهات العرفانية التي استبطنتها الأديان التوحيدية عبر العصور. ولذلك، يعتقد الموحدون أن التوحيد بدأ منذ ان بدأ الإنسان العاقل... برز في شكله الأخير في الإسلام، وترعرع في الشيعة، وتبلور في الإسماعيلية، وامتازت معالمه وبدت في دعوة التوحيد في الثلث الأول من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، بعد صراع خفي بين منظّري الدعوة الإسماعيلية؛ ففي رسالة **مباسم البشارات** يشير أحمد حميد الدين الكرماني (ت ٤١١هـ / ١٠٢٠م)، أحد مفكري الدعوة الإسماعيلية، إلى تقلّب الأحوال بالناس، واضطراب أحوال الذين آمنوابالدعوة الفاطمية، فبعضهم غالي في رأيه، والبعض الآخر خرج عن عقيدته، ذلك أن الدعوة الجديدة تقول إن الحاكم بأمر الله ما هو إلاّ ناسوت للإله، ولكن أحد مفكري طائفة الموحِّدين الدروز ينفي ذلك، ويقول: «الوحدة والعلم والرحمة في نظر الموحِّدين مرادفة بعضها لبعض لقوله تعالى (إلهكم إله واحد لا إله الا هو الرحمن الرحيم)(البقرة ١٦٣)، (عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم) (الحشر ٢٢)، هذه الرحمة التي يعدّها الموحِّدون تجليًا من تجليات الحقيقة الإلهية الواسعة المحيطة بكل شيء... هذا هو الله في مفهوم الموحِّدين، وهو، كما يقول حمزة بن علي، «العقل الكلّي»... تنزّه عن الأسماء والصفات وعن الأجناس، وما عبّرت عنه اللغات، وتنزّه عن جميع الاشياء بالجملة والتفصيل، والعقل الكلّي هو في جوهره في معية الواحد الأحد باستمرار، فهو أمر الله وشأنه وإرادته... وهو كذلك منتهى الأشياء وغالبيتها، «نقطة بيكار» جميع الموجودات، تبدأ منه وتنتهي إليه. إنه كامل النور والقوة، كما يقول حمزة بن علي. أمّا الاسم الذي عُرفت به هذه الفرقة (الدروز)، فهو نسبة إلى نشتكين الدرزي، الذي كان في الأصل أحد أقطاب الدعوة ثم ارتد عنها. انظر: محمد كامل حسين، **طائفة الدروز: تاريخها وعقائدها**، ط ٢ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٠)، ص ٧٢ و١٠٨، و**الموسوعة الفلسفية العربية**، ص ٥٦٦-٥٦٩.

٢٠ الأعظمي، ص ١٦.

لقد شهد جبل لبنان أول حضور سكاني إلى أقاصي شماله، وذلك بهجرة الموارنة إلى مناطقه الجردية الوعرة خلال النصف الثاني من القرن السابع الميلادي[٢١]. وبعد مرور قرن ونصف قرن تقريبًا على توطّن الموارنة، شهدت بلاد الشام حراكًا لافتًا لدعاة القرامطة – الإسماعيلية التي انشقّت عن الشيعة.

وتتحدث المصادر الإسلامية عن بداية وجود القرامطة في الشام[٢٢] أواخر القرن الثالث هـ/ التاسع م. وفي أواخر القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م، تطورت الحوادث، ولاسيما بعد دخول الفرنجة إلى لبنان، واجتياح المغول في النصف الثاني من القرن السابع هـ/ الثالث عشر م مناطق واسعة من بلاد الشام والعراق. وتذكر المراجع المتأخرة دخول المماليك إلى دير مار قزحيا في بلاد بشري[٢٣]، الرمز الديني للموارنة، وعليه، كانت خريطة جبل لبنان السكانية على الشكل التالي: الموارنة في الشمال، الإسماعيلية والدروز والشيعة في الوسط والجنوب. ويقول شيخ الربوة (ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م) أحد مؤرخي القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي «...ومن أعمال دمشق... شوف الميادنة[٢٤]، رافضة[٢٥] وشوف العدس[٢٦] وشوف الحيطي[٢٧] وشوف الخروب[٢٨] وشوف الشومر[٢٩] وإقليم التفاح[٣٠] وإقليم العيشية[٣١] وإقليم الظنية[٣٢] وجبل عاملة[٣٣] وجبل البقيعة[٣٤] من صفد». وقد حدّد شيخ الربوة مذهب سكان هذه المواقع فقال: «كل هؤلاء حاكمية[٣٥]

---

٢١ فيليب حتّي، **تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر**، ترجمة أنيس فريحة؛ مراجعة نقولا زيادة؛ تحرير جبرائيل جبور، ط ٣ (بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٨)، ص ٣٠٣.

٢٢ عز الدين بن الأثير، **الكامل في التاريخ** (بيروت: دار صادر، ١٩٨٢)، مج ٧، ص ٥١١ .

٢٣ اسطفان الدويهي، **تاريخ الأزمنة**، نشره لأول مرة وعلّق حواشيه بطرس فهد (جونيه، لبنان: مطابع الكريم الحديثة ١٩٧٦)، ص ٢٦١ .

٢٤ لا علاقة له بجزين التي اقترن اسمها بـ «إقليم»، وكان يُعرف في عام ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م بـ «شوف بني الميداني»، ومن قراه قيتولي. انظر: علم الدين ابو القاسم بن محمد البرزالي، **المقتفى على كتاب الروضتين**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري (صيدا، لبنان؛ بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٦)، ج ٢، ص ٤٠٤.

٢٥ هو مصطلح ملتبس، وفي أسبابه خلاف، وكان يُطلق على الإمامية الاثني عشرية من سلالة العترة النبوية، إلاّ أن إبن تيمية كان يقصد به : الشيعة و الإسماعيلية والنصيرية والقرامطة والباطنية والدروز .

٢٦ لم نوفق في تحديد موقعه.

٢٧ هو القسم الشرقي من قضاء الشوف.

٢٨ هو اليوم إقليم الخروب ضمن قضاء الشوف .

٢٩ هو ضمن ما يُعرف اليوم بقضاءي صيدا والنبطية في محافظة الجنوب.

٣٠ هو ضمن ما يُعرف اليوم بأقضية : جزين وصيدا والنبطية.

٣١ هي إحدى قرى قضاء جزين في محافظة الجنوب.

٣٢ هناك احتمال كبير لأن يكون قُصد به «جبل كسروان» لأن مصدرين على الأقل يوضحان تسميته الصفتية «جبل الظنيين» و«الضنيين». انظر: بيبرس المنصوري، **زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة**، تحقيق دونالد س. ريتشاردز (بيروت: الشركة المتحدة للنشر، ١٩٨٨)، ص ٢٩٠، وعماد الدين اسماعيل بن علي أبو الفداء، **تاريخ أبي الفداء، المسمى، المختصر في أخبار البشر**، علق عليه محمود ديوب (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧)، ص ٣٩٢ .

٣٣ يحدّه البحر الأبيض المتوسط من الغرب، ويشرف عليه من الشرق جبل حرمون على الحدود السورية، وتقف حدوده شمالاً عند نهر الأوّلي الذي يفصله عن الشوف. وأمّا جنوبًا فلا تظهر حدوده الطبيعية، وذلك أن نصفه الجنوبي يُعتبر، بحسب الجغرافيين، جزءًا من الجليل الأعلى (فلسطين المحتلة)، إلاّ أن حدود جبل عامل من الشمال تطرح إشكالية تاريخية؛ إذ إن نهر الأوّلي يجري شمال جزين، وهذا يعني أن جزين كانت ضمن جبل عامل، مع العلم أن الإدريسي (٤٩٣ـ ٥٦٠هـ/ ١١٠٠ـ ١١٦٥م) يعتبر إقليم جزين من جبل لبنان. انظر: صابرينا ميرفان، **حركة الإصلاح الشيعي: علماء جبل عامل وأدباؤه من نهاية الدولة العثمانية إلى بداية إستقلال لبنان**، ترجمه عن الفرنسية هيثم الأمين (بيروت: دار النهار للنشر، ٢٠٠٠)، ص ١٧، وأبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسي، **كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق** ([بيروت: عالم الكتب]، ١٩٨٩)، مج ١، ص ٣٧٠.

٣٤ يقول عنه شيخ الربوة : جبل البقيعة من صفد، وبه قرية يقال لها البقيعة، ص ٢١١ .

٣٥ نسبة إلى الحاكم بأمر الله، أبو علي منصور بن العزيز بالله أبي المنصور نزار بن المعز لدين الله أبي تميم معد الفاطمي (٣٧٥ـ ٤١١هـ / ٩٨٥ـ ١٠٢٠م).

وآمرية[٣٦] ودروز[٣٧] وحلولية[٣٨] وتناسخية[٣٩] وحفظية[٤٠] وزنادقة[٤١] وهم كفّار بالشرائع ومسلمون على ما يزعمون»[٤٢]. والواضح من التفاصيل التي قدّمها شيخ الربوة أن أهل المناطق السكنية التي كانت تابعة لما يُعرف اليوم بـ «جبل عامل» وبـ «قضاء الشوف الذي كانت حدوده الجنوبية بلدة جزين»[٤٣] وحدوده الشمالية «نهر الصفا»[٤٤] كانوا من المذهبين «الإسماعيلي والدرزي». أمّا جزين، فقد أشار إليها شيخ الربوة بأنها رافضة، وإن لم تكن إشارته صريحة، إلاّ أن صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ / ١٣٦٣م) يؤكد أنها «مأوى الرافضة»، وهو أيضًا أمر لم يُحسم، ويظهر أن معظم سكان النواحي في ولاية دمشق كانوا منذ أواخر القرن الرابع هـ/ العاشر م من أتباع مذاهب فاطمية، بدليل أن المقدسي (ت ٣٨٠هـ / ٣٩٠م) يقول: «... واليوم أكثر العمل على مذاهب الفاطمي»[٤٥]، ولا نعرف ما إذا كان المقدسي يقصد عملاً معيّنًا في إقليم دمشق أو الإقليم بمجمله.

هذه الفسيفساء المذهبية في جبل لبنان لا نعرف عن شؤونها ما يقدم المعطى الديموغرافي حولها، إلاّ أن بعض مستلزمات البحث تفرض سلة من التساؤلات ربما كان أهمها:

- هل الجماعات الطائفية والمذهبية قادرة على التساكن ضمن جغرافيا دينية معيّنة في ظل سلطة سياسية تمسك بالأمن وجباية الضرائب، من دون أن يكون لهذه السلطة القدرة على فرض مشيئتها الدينية، بمعنى فرض تحولات عقائدية تتماشى مع بنيتها الدينية (الإسلام السنّي)؟

- هل يمكن اعتبار تنوّع المذاهب في جبل لبنان نتيجة لمناخات من حرية الرأي، أم أنه نتيجة لصراعات سياسية ضمن الخلافة الفاطمية التي كانت في نزعها الأخير؟

---

٣٦ نسبة إلى «الآمر بأحكام الله ابو علي المنصور بن المستعلي الفاطمي ٤٩٠ ـ ٥٢٤ هـ / ١٠٩٧ـ ١١٣٠م، قتله النزارية الإسماعيلية، وهم لم يدينوا بالولاء لأواخر الفاطميين، ولاسيما الخليفة الآمر الذي لقبهم بـ «الحشيشية». انظر: برنارد لويس، **الحشيشية: الاغتيال الطقوسي عند الإسماعيلية النزارية**، ترجمه وزوده بمدخل تأريخي للإسماعيلية والقرامطة والخلافة الفاطمية سهيل زكار، ط ٢ (دمشق؛ بيروت: دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٦)، ص ٢٨٠؛ فرهاد دفتري، **خرافات الحشاشين وأساطير الإسماعيليين : دراسة في أصول الخرافات وتاريخ وضعها وتطورها منذ العصور الوسطى وحتى القرن التاسع عشر**، ترجمة سيف الدين القصير (دمشق : دار المدى للثقافة والنشر، ١٩٩٦)، ص ١٠٧، والمقريزي، **اتعاظ الحنفا**، ج ١ و٢، ص ١٦٤ و٢٢٤ .

٣٧ فرقة مذهبية انشقّت عن الإسماعيلية في النصف الأول من القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م، تُعرف باسمها المعدَّل والحديث جدًا «طائفة الموحِّدين الدروز»، وتتوزع في جبل لبنان ووادي التيم وجبل الدروز، وهو ما يُعرف اليوم بـ «جبل العرب» وعاصمته السويداء في الجمهورية العربية السورية. وهناك وفي «جبل السماق» في محافظة حلب قرى عدة يقطنها الدروز .

٣٨ يدل به الفلاسفة على الصلة بين الروح والبدن، أو بين العقل الفعال والإنسان، والصوفية يشيرون به إلى الصلة بين الرب (اللاهوت) والعبد (الناسوت)، ويقال للقائلين بالحلول «حلولية» كغلاة الشيعة والباطنية والدروز... والحلولية عند غالبية رجال الدين المسلمين ـ كفرة. انظر: محمود محمد محفوظ [وآخرون]، **الموسوعة العربية الميسرة**، ط ٢ محدثة (القاهرة: دار الجيل، ٢٠٠١)، مج ٢، ص ١٠١٦ .

٣٩ تناسخ الأرواح أو التقمّص أو الاستحواذ أو الهيمنة، لأن «الروح واحدة لا تتناسخ، بل تولد من جديد أو تعود للتجسد». انظر: **الموسوعة الفلسفية العربية**، مج ٢، ص ٣٧٥ .

٤٠ نسبة إلى الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد الفاطمي (٤٦٧– ٥٤٤ هـ).عُرف من تبعه بـ «الإسماعيلية الحافظية». انظر: المقريزي، **اتعاظ الحنفا**، ج ٢، ص ٢٢٩ و٢٥٩، ودفتري، ص ٤٣٣ .

٤١ تختلف مصادر اللغة والمصطلحات في تحديد أصل مرجعي واحد لمصطلح «زندقة»، لكنها تلتقي كلها في تحديد دلالته المفهومية التي تعبّر عن موقف شكّي... وظاهرة الزندقة ـ الإلحاد ملازمة متزامنة محايثة لظاهرة الدِّين...». انظر: **الموسوعة الفلسفية العربية**، مج ١، ص ٤٦٨ و٤٧٠ .

٤٢ شيخ الربوة: محمد بن أبي طالب الأنصاري الصوفي شمس الدين، المعروف بشيخ حطّين أولاً ثم بشيخ الربوة آخرًا (ت٧٢٥هـ). انظر: شمس الدين ابو عبد الله محمد الأنصاري الدمشقي، **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**، تحقيق أ. مهران (ليدن : هرازوفتش، ١٩٢٣])، ص ٢٠٠.

٤٣ انظر الهامش رقم ٤٤ .

٤٤ أحد أنهر لبنان، وهو يشكّل الحد الفاصل بين قضاءي الشوف وعاليه في محافظة جبل لبنان.

٤٥ أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٠٩)، وط ٢ (بيروت: دار صادر، [د. ت.])، ص ١٨٠.

إن واقع هذه الجماعات الاجتماعي لا يمكن إخراجه من واقع أعم وأشمل للريف الشامي، حيث كان الهدف الأساسي تأمين الغذاء الذي كان في جانب كبير منه يتوافر بالماشية التي لا نعرف أنواعها على وجه الدقة، ولكن الماعز قد يكون في مقدّمتها نظرًا إلى طبيعة جبل لبنان الحرجية. أمّا باقي المصادر الغذائية، فقد أوحى شيخ الربوة بـأن النباتات كانت الأساس فيها، إذ ذكر اللوز والأبهل[٤٦] والقراصيا[٤٧] والزيزفون[٤٨]، وقال عن الفواكه إنها «كثيرة جدًا بلبنان»[٤٩]، ولم يذكر شجرة الزيتون المهمّة جدًّا على الصعيد الغذائي ويُصنع من ثمرها، مع أنه ذكرها عند حديثه عن «إقليم سامر» (سامرة) ومدينة نابلس (في فلسطين). وهناك ما يعزّز نفي وجود الزيتون في جبل لبنان؛ ففي حديث قال ابن عباس: التين، بلاد الشام، والزيتون بلاد فلسطين[٥٠]، مع أن هناك نوعًا من الزيتون في بعض مناطق جبل لبنان يُدعى الزيتون الروماني، وهو معمر، وقد أثبتت المعاينة الميدانية وجود شجرة يقارب محيطها الثمانية أمتار.

– من اللافت أن القرى في جبل لبنان، ولا سيما التي توصف اليوم بـ «الجردية» كانت تشكّل مواقع سكنية للجماعات المذهبية، وبينها الكثير من القرى التي ترتفع عن سطح البحر ما يزيد على ٨٠٠ متر، وهناك قرى يتجاوز ارتفاعها الألف متر، ذكر منها صالح بن يحيى في حوادث القرنين السابع والثامن هـ/ الثالث عشر والرابع عشر م: عبيه، بتاتر، بتلون، بيصور، جزين، عاليه، عين زحلتا، عين ماطور، نيحا، مجد لبعنا[٥١]. وتذكر المصادر الفرنجية قرى بعذران وجباع والمعاصر ومرسته وبكاسين[٥٢]. والقرى الأربع الأُول هي حاليًا في قضاء الشوف، والأُخر في قضاء جزين. أمّا في جبل لبنان الشمالي، فتذكر مصادر قريبة من تلك المرحلة قرى بشرّي وجبّة المنيطرة[٥٣]، وتذكر مصادر محلية قرى: ايطو، ترشيش، حدشيت، حردين، قاديشا، قنوبين، كفرفو وغيرها[٥٤].

وبالرغم من انعدام الجوار بين التجمّعات السكنية في جبل لبنان الجنوبي، وتلك التي يشكّلها الموارنة، وبنسبة ضئيلة اليعاقبة[٥٥]، في شماله، فإن تواصلاً ما حدث على خلفية المبادلات الربحية التجارية عبر الفرنجة على الساحل، وهذه بداية لم تؤسس لتواصل فعلي إلاّ في النصف الأول من القرن السادس عشر م، ذلك أن جميع الجماعات الدينية كانت في عزلة؛ إذ لا يقدّم نصّان متقاربان في الزمن ويعودان إلى صالح بن يحيى وابن القلاعي دلالات مستنهضة للقول بوجود علاقات ود بين الجماعتين. لكن هذا الزخم للأسطول التجاري الإهدني

٤٦ الأبهل: مثل السرو، ولكنه كالشجر لا يكون نسبًا مثله، وليس في الشام منه، انظر: محمد بن عيسى بن كنان، **المواكب الاسلامية في الممالك والمحاسن الشامية**، تحقيق ودراسة حكمت اسماعيل؛ مراجعة محمد المصري، وزارة الثقافة والارشاد القومي، احياء التراث العربي؛ ٩٢–٩٣، ٢ ق (دمشق : وزارة الثقافة، ١٩٩٢)، ق ٢، ص ٣٣٤.

٤٧ قراصيا: له حمض زائد ثم يحلو قليلاً، وأول نباته من أرض الأردن إلى دمشق، وهو واللوز والبندق يخرج هكذا كثيرًا، انظر: المصدر نفسه، ص ٣٠٢.

٤٨ زهره أصفر، عطِر الرائحة وشجره كبير، انظر: المصدر نفسه، ص ٢٣٥ .

٤٩ الدمشقي، **نخبة الدهر**، ص ٢٠٠.

٥٠ **فضائل الشام**، تحقيق أبي عبد الرحمن عادل بن سعد (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١)، ص ٢٤١.

٥١ ابن يحيى، **تاريخ بيروت**، ص ٤٠، ٤٣، ٤٨، ٥١، ٥٦، ٧٨ و١٩٠.

٥٢ إلياس القطار، **لبنان في القرون الوسطى، ج. ٢: عهد الفرنج الصليبيين (٤٩٢–٦٩٠ هـ/ ١٠٩٩–١٢٩١ م)** (بيروت : [المؤلف]، ٢٠٠٨)، ص ٤٢٩ .

٥٣ أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، **التعريف بالمصطلح الشريف**، عني بتحقيقه وضبطه وتعليق حواشيه محمد حسين شمس الدين (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨)، ص ٢٣٦.

٥٤ **زجليات جبرائيل ابن القلاعي**، دراسة وتحقيق بطرس الجميل، أصول ومراجع تاريخية؛ ٢ (بيروت : دار لحد خاطر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٢)، ص ٧، ٩، ١٥، ٩١ و١٠١.

٥٥ أتباع أحد المذاهب المسيحية .

(أربعين بغلاً)[٥٦]، الذي كان ينقل إلى دمشق مواد مختلفة نجهلها ويأتي بخلافها إلى قرى جبل لبنان الشمالي، ألم يكن لأهالي جبل لبنان الجنوبي نصيب من حراكه؟ قد يكون لهذا التساؤل أبلغ الجواب في موقف للأمير السيد جمال الدين عبد الله التنوخي (ت ٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م)، «فإنه اختص من إحسانه وخيره فريقًا من نصارى بلدة عبيه، ومن هؤلاء بيت سركيس وبيت خازن (غير خازن كسروان) من أفاضل الأسر، وأوصى بهم خيرًا وأسكنهم في جواره، وجعل دارهم ملاصقة لداره»[٥٧]، وهذا مظهر تلاقٍ كان قد أسس لهجرة مارونية مفترضة إلى جبل لبنان الجنوبي قبل أكثر من نصف قرن على وجود المعنيين كجباة للضرائب في بلاد الشوف. وهكذا، فإن الهجرات المارونية إلى بلاد الدروز جاءت على خلفية اجتماعية تمثّلت في تعرض الموارنة لممارسات تعسفية في جباية الضرائب هذا من جهة، وتعاطفهم من جهة أخرى مع الكنيسة الرومانية وخضوعهم لسنن الكنيسة، «فصار اضطهاد عظيم على الملّة المارونية، فحبسوا كثيرين منهم وعذّبوهم وقتلوهم وحرقوا بيوتهم»[٥٨].

١- الإسماعيليون والدروز

منذ أواخر القرن الثالث هـ، وتحديدًا عندما أعلن أبو عبد الله الشيعي الإمامة الإسماعيلية في شمال أفريقيا (المغرب)، بعد أن بايعته كتامة القبيلة المتمكنة على أن يدعو باسم إمامة المهدي المنتظر[٥٩]، قامت معارضة قوية من الإسماعيليين الأوائل الذين اعترفوا بسبعة أئمة فقط، آخرهم محمد بن إسماعيل القائم المنتظر والناطق السابع. وقد عُرفت هذه الحركة بحركة قرامطة الشام، وكان ذلك في أواخر القرن الثالث هـ/ التاسع م. لقد كان لتنامي هذه الحركة في البلاد الإسلامية، ولاسيما في بلاد الشام، أن استقطبت الكثير من القبائل العربية، وكان لاثنين من قادتها البارزين، يحيى وحسين ولدا زكرويه، الإمامة في الشام، وتسمّى الواحد منهما بالإمام وادّعيا النسب الإسماعيلي[٦٠] والباع الطويل في الحضور القرمطي السياسي. هذا وقد تمسك إسماعيليو ما قبل العهد الفاطمي بالتطبيق الشيعي الأصلي لمصطلح «حجّة»، واعتقدوا أن في كل عصر حجّة الله، أكان نبيًا أم رسولاً أم إمامًا، واستخدموا الحجّة أيضًا للإشارة إلى شخصية تمثّل عندهم حدًا من حدود الدِّين، ولاسيما تلك التي من خلالها يصبح المهدي المستور البعيد المنال قريبًا من مريديه. وعلى هذا الاعتقاد كان على حجّة الإمام أن يكون ممثلاً للقائم محمد بن إسماعيل خلال فترة ستره[٦١].

وإذا كان الانشقاق الأول للبنى الإسماعيلية قد أفرز جماعة ثائرة انتشرت في معظم العالم الإسلامي، فإن الانشقاق الثاني طاول إسماعيلية بلاد الشام على خلفية صراع عقائدي بين توجّهين فكريين، أحدهما كشف المستور من العقيدة الإسماعيلية، التي كان أخطر ما فيها إعلان الكشف والقيامة، ولا تعني القيامة نهاية العالم، بل كشف التوحيد على رؤوس الأشهاد بعد أن كان مستورًا في الشرائع، وإشهار باب التوحيد من خلال قائم الزمان «العقل الكلّي». وهذا المنحى العقائدي لم يكن مفاجئًا للمفكرين الاسماعيليين؛ فهو كان جزءًا من عقيدتهم، ولكن الخلاف كان على التوقيت، إذ لم يكن العالِم الإسماعيلي أحمد حميد الدين الكرماني موافقًا على التعجيل في

٥٦ الدويهي، ص ٣٥٦.
٥٧ عجاج نويهض، **التنوخي الامير جمال الدين عبد الله والشيخ محمد أبو الهلال المعروف بالشيخ الفاضل**، ط ٢ مزيدة ومنقحة (بيروت: دار الصحافة، ١٩٦٣)، ص ١٣٩.
٥٨ الدويهي، ص ٣٤٨.
٥٩ محمد كامل حسين، **طائفة الإسماعيلية: تاريخها، نظمها، عقائدها**، المكتبة التاريخية؛ ٤ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٩)، ص ٢٣.
٦٠ فرهاد دفتري، **الإسماعيليون: تاريخهم عقائدهم**، ترجمة سيف الدين القصير (بيروت: دار الساقي، ٢٠١٢)، ص ٢١٢ - ٢١٣.
٦١ المصدر نفسه، ص ٢١٢-٢١٣.

الكشف[٦٢]. هذا الخلاف اتّخذ منحى افتراقيًا في بلاد الشام، حيث انقسمت الإسماعيلية على بعضها، وكان من نتائجها ظهور مذهب التوحيد. وخلال هذا المخاض العسير حاول الداعي محمد بن إسماعيل (نشتكين) الملقب بـ «الدرزي»، وهو من فئة الباطنية، كما تصفه إحدى الدراسات الحديثة[٦٣] وجاء إلى وادي التيم لإبلاغ الدعوة، أن يدعو لنفسه بصفته المزعومة «سيد الهادين»، التي اعتبرها حمزة – وهو الذي كان قريبًا من الحاكم بأمر الله وأحد أقطاب الدعوة – أعلى من قائم الزمان. وقد أدى هذا الصراع، على ما تُظهر الأدبيات الدرزية، إلى خنق دعوة نشتكين. أما أتباعه الذين أُطلق عليهم اسم «الدرزية»، فيصفهم بعض مؤرخي القرن الثامن هـ/ الرابع عشر م بـ «التيامنة» نسبة إلى وادي التيم، المنطقة التي انتشرت فيها دعوة التوحيد، وربما نزح بعض التيامنة إلى ناحية كسروان التي لم تكن قفرًا خاليًا من السكان، بل ربما كان فيها جماعات إسماعيلية مخالفة باعتقادها للبحتريين الدروز في جبل الغرب من بلاد بيروت، الذين كانوا قد توطّنوا هذا الجبل في أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر م وتقبّلوا دعوة التوحيد خلال العقد الأول من القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م. وعلى مدى القرن السادس والنصف الأول من القرن السابع هـ/ الثاني عشر والنصف الأول من القرن الثالث عشر م، تسكت المصادر التاريخية عن أي حراك لأهل كسروان، الأمر الذي يتعذّر معه الكشف عن هويتهم الدينية والسياسية. ومع بداية القرن الثامن هـ/ الرابع عشر م، أفرغ المؤرخون ما في جعبهم من معلومات حول هذه الجماعة، بعد أن هاجمت العساكر المملوكية ناحية كسروان، فقتلت الكثير من أهله وهجّرت الباقي.

وقد تناول حوادث كسروان أربعة عشر مؤرخًا من خارج جبل لبنان، لهم أعمال منشورة. وأفصح معظمهم عن هوية الكسروانيين، وحدّد كلٌّ منهم مذهب أهل كسروان بحسب المعطى الذي توافر لديه. ولن ندخل في تفاصيل ما دوّنه هؤلاء، إذ يكفي أن نشير إلى مذهب الكسروانيين بحسب قول كل منهم:

اسم المؤرخ	عام الوفاة	قوله في هوية أهل كسروان
البرزالي[٦٤]	٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م	روافض ونصيرية
ابن الجزري[٦٥]	٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م	—
أبو الفداء[٦٦] (تاريخه)	٧٣٢هـ/ ١٣٣١م	نصيرية وظنيين
أبو الفداء[٦٧] (تقويم البلدان)	٧٣٢هـ/ ١٣٣١ م	يصحح معلومته بعد أن يشير إلى وادي التيم جبل الدرزية بقوله: والكسروان أيضًا شرعتهم.
ابن كثير[٦٨]	٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م	الرفض والتيامنة

٦٢ أحمد حميد الدين الكرماني، **مجموعة رسائل الكرماني**، تقديم وتحقيق مصطفى غالب، ط ٢ (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٧)، ص ١٣٦–١٣٧.
٦٣ ساسي، ص ٢٠٢.
٦٤ البرزالي، ج ٣، ص ١٠١، ١٠٣، ٢٨٤ و٢٩٣.
٦٥ شمس الدين ابراهيم بن أبي بكر الجزري، **تاريخ حوادث الزمان وانبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه المعروف بتاريخ ابن الجزري**. تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ٣ ج (صيدا، لبنان: المكتبة العصرية، ٢٠٠٦)، ج ١، ص ١١٠–١١١.
٦٦ أبو الفداء، ج ٢، ص ٣٩٢.
٦٧ أبو الفداء، ص ٢٢٩.
٦٨ أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير، **البداية والنهاية**، وثّقه وقابل مخطوطاته الشيخان محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود؛ وضع حواشيه أحمد أبو ملحم وآخرين (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١)، مج ٧، «السنوات ٥٨٩ ـ ٧٦٧»، ج ١٤، ص ٣٥.

اسم المؤرخ	عام الوفاة	قوله في هوية أهل كسروان
ابن فضل الله العمري[٦٩]	٧٤٩هـ/ ١٣٤٨ م	طائفة الدرزية
ابن الوردي[٧٠]	٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م	نصيرية وظنيين
النويري[٧١]	٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م	الدرزية
الدواداري[٧٢]	ـ	الدرزية
المقريزي[٧٣]	٨٤٥هـ/ ١٤٤١م	الدرزية
اليونيني[٧٤]	٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م	الدرزية
الذهبي[٧٥]	٧٥٨هـ/ ١٣٨٣م	رافضة
العيني[٧٦]	ـ	أعظم غلاة الرافضة والزنادقة
ابن قدامة المقدسي[٧٧]	٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م	روافض ونصيرية
القلقشندي[٧٨]	٨٢١هـ/ ١٤١٨م	الدرزية
المطران تادروس العاقوري[٧٩]	ـ	موارنة

٦٩ ابن فضل الله العمري، ص ٢٠٤-٢٠٥ .

٧٠ زين الدين عمر بن مظفر بن الوردي، **تتمة المختصر في أخبار البشر** (القاهرة: جمعية المعارف، ١٨٦٨)، ج ٢، ص ٢٥٤، نقلًا عن: الياس القطار، **نيابة طرابلس في عهد المماليك، ٦٨٨ - ٩٢٢ هـ / ١٢٨٩ - ١٥١٥م**، منشورات الجامعة اللبنانية. قسم الدراسات التاريخية؛ ٤٣ (بيروت: الجامعة اللبنانية، ١٩٩٨).

٧١ أبو العباس أحمد بن عبد الوهاب النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق الباز العريني؛ مراجعة عبد العزيز الأهواني (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢)، ج ٣١، «حوادث ٦٩٩هـ»، ص ٤٠٨.

٧٢ أبو بكر عبد الله بن أيبك الدواداري، **كنز الدرر وجامع الغرر** (القاهرة: سامي الخانجي، ١٩٦٠-١٩٨٢)، ج ٩: **الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر**، تحقيق هانس روبرت رويمر (١٩٦٠)، ص ١٧، نقلًا عن: القطار، **نيابة طرابلس**، ص ٩٢.

٧٣ أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق محمد عبد القادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧)، ج ٢، ص ٣٣١.

٧٤ قطب الدين موسى بن محمد اليونيني، **ذيل مرآة الزمان، تاريخ السنوات ٦٩٧ـ ٧١١هـ / ١٢٩٧ت- ١٣١١م**، تحقيق حمزة عباس (بيروت: جامعة القديس يوسف، ١٩٩٠)، نقلًا عن: القطار، **نيابة طرابلس**، ص ٨٨.

٧٥ أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، **من ذيول العبر**، تحقيق محمد رشاد عبد المطلب ؛ راجعه صلاح الدين المنجد وعبد الستار أحمد فراج ؛ بإشراف لجنة فنية بوزارة الإرشاد والإنباء، التراث العربي؛ ١٧ (الكويت: مطبعة حكومة الكويت، [د. ت.])، ص ٣٠، نقلًا عن: القطار، **نيابة طرابلس**، ص ٩٣.

٧٦ أبو محمد محمود بن أحمد العيني، **السيف المهند في سيرة الملك المؤيد «شيخ المحمودي»**، حققه وقدم له فهيم محمد شلتوت؛ راجعه محمد مصطفى زيادة، المكتبة العربية. التراث (القاهرة : دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٦-١٩٦٧)، ص ٨١ ـ٨٣، نقلًا عن: القطار، **نيابة طرابلس**، ص ٩٩.

٧٧ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي، **العقود الدرية من مناقب شيخ الاسلام أحمد بن تيمية**، بتحقيق محمد حامد الفقي (صيدا، لبنان؛ بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٥)، ص ١٥٣.

٧٨ أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه محمد حسين شمس الدين، ١٤ ج (بيروت: دار الكتب العلمية، [د. ت.])، ج ١٣، ص ٢٥١.

٧٩ أنطوان ضو، **تاريخ الأمراء اللمعيين** (بيروت: [د. ن.]، ١٩٩٠)، ص ٤١، والقطار، **نيابة طرابلس**، ص ١٠٦ .

يتضح من آراء الذين أرّخوا لحوادث كسروان خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، أن واحدًا منهم لم يُبد رأيًا في مذهبهم، وهو الجزري، وآخر عدّل رأيه، فبعد أن كانوا في نظره نصيريين وظنيين أصبحوا دروزًا، وبذلك يصبح توزيع النِّسب المئوية واقعًا على خمسة عشر مؤرخًا وفاقًا لما يلي:

دروز	٨ من أصل ١٥	٥٣,٣٣ في المئة
ظنيون	١ من أصل ١٥	٦,٦٦ في المئة
نصيرية	٣ من أصل ١٥	٢٠,٢٢ في المئة
رافضة	١ من أصل ١٥	٦,٦٦ في المئة
غلاة	١ من أصل ١٥	٦,٦٦ في المئة
موارنة	١ من أصل ١٥	٦,٦٦ في المئة
مجموع النِّسب		**٩٧,٩٩ في المئة**

واضح من هذه النِّسب أن الذين قالوا بأن أهل كسروان «دروز» أو «تيامنة» شكّلوا أكثر من نصف المؤرخين، والذين قالوا بأنهم نصيرية بلغوا خُمس عدد المؤرخين، أمّا من اعتبرهم من المؤرخين «رافضة» فكان مؤرخًا واحدًا، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الغلاة والظنيين والموارنة. وإذا عدنا إلى فقه أهل السنّة والجماعة، وكذلك فقه الشيعة، يمكن القول إن الغلاة ليسوا في عداد الإمامية الاثني عشرية لأن «الغالية هم الذين غلوا في حق أئمتهم حتى أخرجوهم من حدود الخلقية وحكموا فيهم بأحكام الإلهية»[٨٠]. كما إن اسم «الظنيين» ليس مكانًا بل صفة لأهل كسروان، وهو يعني عند علماء السنّة وفقهائهم أنهم «المشركون» الذين ظنوا بالله ظن السوء»[٨١]. ومع ذلك، فإن مصطلح الرافضة هو اسم جامع في مفهوم أهل السنّة والجماعة للإمامية الاثني عشرية والإسماعيلية والدروز والنصيرية.

في هذا السياق، لا بد من الوقوف على نص مؤرخ عاش قريبًا من حوادث كسروان زمانيًا ومكانيًا، وهو صالح بن يحيى، مؤرخ البحتريين أمراء جبل الغرب من بلاد بيروت، وكان قد نشط في النصف الأول من القرن التاسع هـ/ النصف الأول من القرن الخامس عشر م. واللافت أن ابن يحيى كان في معظم نصوصه التأريخية لحوادث القرنين الثالث عشر والرابع عشر يرفد معلوماته بوثائق من أحد البيوتات البحترية، أو بروايات نقلًا عن أمرائهم، باستثناء حوادث كسروان التي تناولها بالنقل عن مؤرّخين هما الكتبي[٨٢] والنويري، ولم يضف شيئًا على أسلافه حول هوية «الكسروانيين»، وربما يكون هذا النأي عن الحوادث مبرَّرًا، إذا ما علمنا أن البحتريين كانوا على تماس مع أهل كسروان، وبالتالي كانوا ملزمين بمعاضدة السلطة السياسية في دمشق. ولكن ما لم يكن مقبولاً هو استنسابيته التي تجسدت في تغييب هوية الكسروانيين.

ينقل ابن يحيى عن النويري ما كتبه حول حوادث ٦٩١ هـ/ ١٢٩١ م التي ذكر فيها توجه العساكر إلى جبال كسروان بقيادة بعض الأمراء، وفشل المهمة بسبب وجود من ثنى عزم الأمير بدر الدين بيدرا وكسر حدّته،

٨٠ أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، **الملل والنحل**، صححه وعلق عليه أحمد فهمي محمد، ط ٧ (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٧)، ص ١٧٦.

٨١ ابن قيم الجوزية، ج ١، ص ٦٥.

٨٢ هو محمد بن شاكر الكتبي الداراني الدمشقي المؤرخ (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م). من مؤلفاته **عيون التواريخ** الذي رتّبه على السنين، فابتدأه بسيرة النبي وانتهى إلى عام ٧٦٠هـ/ ١٣٥٩م. انظر: صلاح الدين المنجد، **معجم المؤرخين الدمشقيين وآثارهم المخطوطة والمطبوعة** (بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٧٨)، ص ١٨٣.

فحصل الفتور في شأنهم، الأمر الذي مكّن الكسروانيين من بعض العساكر، فنالوا منهم قتلًا ونهبًا، واتّهم الأمير بيدرا بأنه حصل على رشوة منهم[٨٣]. هذا ما قاله النويري (بتصرف) ونقله ابن يحيى، لكن عندما يأخذ النويري بتفاصيل الحوادث وتعيين الجماعات التي قاتلت عساكر المسلمين، ينفر ابن يحيى من نص النويري ولا يعود يقاربه، لأن النويري ذكر الدروز في حوادث ٦٩٩ هـ بقوله: «ثم توجه [الافرم] في العشرين من شوال إلى جبال كسروان والدرزية، وقصد استئصال شأفتهم لِما عاملوا به العساكر الإسلامية عند هزيمتهم، من السلب والأذى، فالتزموا بردّ ما أخذوه من أقمشة العسكر، وحمل ما رُدّ إليهم وعاد إلى دمشق[٨٤]، وعلى خلفية الحوادث المذكورة واتهام السلطات المملوكية للكسروانيين «أنهم كثروا وطغوا واشتدت شوكتهم وامتدوا إلى أذى العسكر عند انهزامه من التتر، وقتلوا من وجدوه ونهبوا ما بقي معهم من صيانة القماش والعدّة فكانوا في تمام الشدة»[٨٥]. أمّا شيخ الإسلام ابن تيمية[٨٦] الذي واكب الحملة على كسروان وقدّم بنتيجتها رسالة إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون[٨٧]، سلطان المماليك؛ فقد أضاف إلى الاتهامات ما يلي: «لمّا قدُم التتار إلى البلاد، وفعلوا بعسكر المسلمين ما لا يُحصى من الفساد، وأرسلوا إلى أهل قبرص، فملكوا بعض الساحل وحملوا راية الصليب، وحملوا إلى قبرص من خيل المسلمين وسلاحهم وأسراهم ما لا يحصي عدده إلاّ الله، وأقام سوقهم بالساحل عشرين يومًا يبيعون فيه المسلمين والخيل والسلاح إلى أهل قبرص، وفرحوا بمجيء التتار هم وسائر أهل هذا المذهب الملعون، مثل أهل جزين وما حواليها وجبل عامل ونواحيه»[٨٨].

اتهامات ابن تيمية لأهل كسروان، التي تُضاف إليها شهادات المؤرخين، تؤكد موقفهم العدائي من السلطات الإسلامية على خلفية محاربتهم للمسلمين، وهذا الموقف في ميزان الشرع الإسلامي يستوجب مقاتلتهم تحت عنوان «جهاد المارقين، بعد أن بُذل لهم من العدل والإنصاف ما لم يكونوا يطمعون به...»[٨٩]. أمّا هوية أهل كسروان، ففيها نزاع بين الباحثين الذين تناولوها وإنْ كنّا نرى أنهم دروز منشقون عن دعوة التوحيد[٩٠].

هذه الأسباب التي أوضحنا بعضها أعلاه، أوجبت على السلطات الإسلامية المملوكية في دمشق بتجريد حملة عسكرية على كسروان وجُرده أدّت إلى تهجيرهم، وكانوا، بحسب صالح بن يحيى، أربعة آلاف راجل[٩١]. أمّا المقريزي، فيقول إن عدد الرماة منهم اثنا عشر ألف رام[٩٢]. ولا شك في أن تقدير كلٍّ من ابن يحيى والمقريزي يحمل الكثير من التساؤل؛ فبالرغم من أن المعطيات السكانية في تلك الحقبة التاريخية معدومة، فإن ما كان يتعلق بالجوائح التي اقتصرت إحصاءاتها التقريبية على المدن الكبيرة كدمشق وحلب[٩٣]، يعني تسليمنا بقول

٨٣ ابن يحيى، **تاريخ بيروت**، ص ٢٦ .

٨٤ النويري، ج ٣١، ص ٤٠٨.

٨٥ بيبرس المنصوري، **كتاب التحفة الملوكية في الدولة التركية: تاريخ دولة المماليك البحرية في الفترة من ٦٤٨-٧١١ هجرية**، نشره وقدم له ووضع فهارسه عبد الحميد صالح حمدان (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٨٧)، ص ٢٦٢.

٨٦ العلامة تقي الدين ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الحراني، ٦٦١-٧٢٨هـ/ ١٢٦٢-١٣٢٧م. الشيخ الإمام العالم العلامة المفسر الفقيه المجتهد الحافظ المحدِّث شيخ الإسلام، انظر: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، **الوافي بالوفيات**، حققه وعلّق عليه أبو عبد الله جلال الأسيوطي (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٠)، ج ٥، ص ٢٥٧ و٢٦٢ .

٨٧ محمد بن قلاوون بن عبد الله الصالحي الملك الناصر ابن المنصور (٦٨٤-٧٤١هـ/ ١٢٨٥-١٣٤٠م)، تولّى سلطنة المماليك بتقطع حتى وفاته، انظر: شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة**، تحقيق وتعليق أحمد فريد المزيدي (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨)، مج ٢، ج ٤، ص ٩٠ و٩٢.

٨٨ المقدسي، ص ١٥٥ .

٨٩ المصدر نفسه، ص ١٥٧.

٩٠ نايل أبو شقرا، **تاريخ لبنان أزمة نص ومصطلح وهوية**، بيروت: [المؤلف]، ٢٠٠٤)، ص ١٨٠-١٨١ .

٩١ ابن يحيى، **تاريخ بيروت**، ص ٩٦.

٩٢ المقريزي، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، ج ٢، ص ٣٣١.

٩٣ فادي الياس توا، **المناخ والأسعار والأمراض في الشام في بلاد عهد المماليك (٦٤٨-٩٢٢هـ/ ١٢٥٠-١٥١٦م)** (بيروت: [د. ن.]، ١٩٩٨)، ص ٣٧٧-٣٧٨.

ابن يحيى إن الأربعة آلاف راجل مع عائلاتهم يقدَّر بعشرين ألف نسمة، وتسليمنا بمقولة المقريزي أن العدد الإجمالي يقدّر بستين ألف نسمة، وهذان الحاصلان ناتجان من ضرب عدد الرجالة أو الرماة بالعدد خمسة، وهو رقم اعتمده باحثون في التاريخ العثماني[٩٤]، علمًا أن بعض الدارسين يجعل هذه العدد ستة بدلًا من خمسة. وفي كلتا الحالتين، فإن المشهد الذي تقدمه النصوص التاريخية يكشف عن مأساة أهل كسروان الذين نُقلوا قسرًا إلى جزين والبقاع وطرابلس. وهكذا، أُفرغت كسروان من أهلها، ونقلت السلطات المملوكية من حل محلهم من الجماعات التركمانية[٩٥].

٢- المسيحيون وإنماء بلاد الدروز

إن حوادث القرن الرابع عشر كشفت عن مأزق تعايشي طوائفي في ظل وجود قوى خارجية تمكّنت من استدراج الأقليات المذهبية، كالشيعة والإسماعيلية والنصيرية والدروز، وزاد في تفاقمه أن ارتباط هؤلاء بالسلطة الإسلامية لم يكن إلاّ ارتباطًا اسميًا؛ إذ إن عدم اندماجهم في المجتمع الأكثري الإسلامي كان سببًا في انعزالهم مع الموارنة في الجبال العالية البعيدة عن المدن الساحلية، التي لم تكن توفّر لهم سوى الأمن الجزئي. ومع الأخذ في عين الاعتبار سكوت المصادر التاريخية عن حراك اجتماعي في جبل لبنان خلال القرن الخامس عشر، فإن في الإمكان التحدث عن تبدّل في المشهد السكاني في القرن السادس عشر، حيث إن جماعات من أهل السنّة والجماعة والشيعة والدروز والموارنة توطّنت كسروان، في حين اختفت عن جبل لبنان الجنوبي الفِرق المذهبية التي تحدّث عنها شيخ الربوة[٩٦]، وكانت في معظمها فاطمية العقيدة، بما في ذلك إقليم الخروب على ساحل قضاء الشوف، حيث تحوّل أهله إلى السنّة، وأصبحت الخريطة السكانية تقتصر على ثلاثة مذاهب في جبل لبنان الجنوبي، الدروز في الأشواف، مع رصد وجود سنّي في بعض القرى كالباروك[٩٧] ومجدل المعوش[٩٨]، والشيعة في إقليم جزين، والسنّة على ساحل الشوف بين صيدا والدامور.

تشير المصادر التاريخية إلى تغيّر لافت في البنية السكانية مع بدايات العهد العثماني؛ إذ يظهر أن الدروز لم يتقبّلوا الحكم العثماني الجديد، فقاموا بمحاولات عدة تكشف عن تواطئهم مع المماليك الذين كانوا قد أزيحوا عن بلاد الشام بدءًا من عام ٩٢٢هـ/ ١٥٠٦م. وتسجل الحوادث الأمنية ثلاث حملات عسكرية قام بها العثمانيون ضد المتن والشوف الحيطي، قُتل بنتيجتها عدد من الدروز تم إحصاؤه بالرؤوس التي نُقلت على الجمال إلى دمشق[٩٩]. ومع ذلك، لا يمكن تغييب العامل الاقتصادي المتمثّل في عدم قيام بعض الجماعات الدرزية بدفع الضرائب؛ ففي حكم سلطاني مرسل من الديوان الهمايوني (السلطاني) إلى نائب الشام عام ٩٧٣هـ / ١٥٦٥م، أثيرت مسألة طائفة من الدروز في إحدى قرى ناحية الجرد، حيث «رفعوا لواء العصيان، وامتنعوا عن دفع ما يستحق

٩٤ عصام خليفة، **نواحي لبنان في القرن السادس عشر: التقسيمات الادارية- الديموغرافيا -الأديان والمذاهب** (بيروت: [المؤلف]، ٢٠٠٤)، ص ١٠-١١، وشوفاليه، ص ١١٩.

٩٥ المقدسي، ص ١٦٠.

٩٦ انظر الإشارة إلى وادي التيم وجبل الشيخ، ص ١٩٠.

٩٧ خليفة، ١٧٤.

٩٨ نجم الدين محمد بن محمد الغزي، **الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة**، حققه وضبط نصه جبرائيل سليمان جبور، ط ٢ (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٩)، ج ١، ص ٥١ وج ٢، ص ١٨٤، ومحمد بن علي بن طولون، **مفاكهة الخلان في حوادث الزمان: تاريخ مصر والشام**، حققه وكتب له المقدمة والحواشي والفهارس محمد مصطفى، تراثنا، ٢ ج (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ١٩٦٢-١٩٦٤)، القسم الأول من ٣٥٩.

٩٩ محمد بن علي بن طولون: **اعلام الورى بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق الشام الكبرى**، تحقيق محمد احمد دهمان (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٣)، ص ٢٥٧، وحوادث دمشق اليومية غداة الغزو العثماني للشام، **٩٢٦-٩٥١ هـ: صفحات مفقودة تنشر للمرة الاولى من كتاب مفاكهة الخلان في حوادث الزمان لابن طولون الصالحي الدمشقي**، تحقيق احمد ايبش، اعادة استكشاف سورية؛ ١ (دمشق: دار الأوائل، ٢٠٠٢)، ص ١٧٠.

عليهم من حقوق ورسوم»[١٠٠]. إن قراءة التاريخ المعني (١٤٤٩هـ/ ١٦٩٧م) بتجرد وموضوعية تنحو إلى تسجيل ريادية ظاهرة للمسيحيين بشكل عام، والموارنة بشكل خاص، في مسألة نمو اقتصاد بلاد الدروز التي عانت صعوبات بالغة خلال المرحلة التي سبقت بداية القرن السادس عشر، وحالت دون تمدّد الدروز على مساحات إضافية خارج مواقعهم السكنية. وقد ترافق تسليم عُهَد[١٠١] جبل لبنان الجنوبي للعائلة المعنية السنّية المذهب[١٠٢]، مع التقاء مصلحة المسيحيين مع مصلحة الدروز، ذلك أن التوطّن المسيحي في جبل لبنان الأوسط والجنوبي أوجبته عوامل عدة، أهمها اضطهاد موظفي ولاية طرابلس للموارنة، حيث كانوا يُرهقون الأهالي بالضرائب، وحاجة الدروز إلى يد عاملة فاعلة يمكن أن تحقق لهم فائضًا إنتاجيًا يؤمّن دفع الضرائب. وقد نجح الموارنة والملكيون[١٠٣] في إعادة إحياء الأرض من خلال عقود شراكة شرعية (المزارعة، المساقاة، الشراكة على الأرض والشجر)؛ هذا التوطّن في جبل لبنان جرى في مرحلة قصيرة نسبيًا لا تتجاوز القرن، إذ بدأت الهجرات المسيحية في النصف الأول من القرن السادس عشر. ويفيد تقرير مرسل من الأب إليانو، أحد أفراد البعثة البابوية إلى جبل لبنان، مؤرخ عام ١٥٧٨م، بتوطّن موارنة في بعض القرى الدرزية. يقول إليانو: «وفي بلاد الدروز خمس أو ست قرى يسكنها قوم من الموارنة...»[١٠٤]. وتقدّم المصادر التاريخية ملامح واضحة لهجرات ملكية باتجاه ساحل جبل لبنان، تمدّدت خلال أواخر القرن السابع عشر صعودًا باتجاه المناطق الجبلية. هذه المرحلة هي الأكثر وضوحًا على صعيد التأريخ لجبل لبنان وبناه السكانية في ظل ادارة عثمانية مركزية ناشطة، ولذلك، فإن القرن السادس عشر شهد هجرات طوائفية إلى جبل لبنان الأوسط والجنوبي، سببها رغبة السلطان سليم (٩١٨ – ٩٢٧ هـ/ ١٥١٢– ١٥٢٠م) في إعمار البلدان «حيث قدُمت إليه الناس من كل جانب، فقدُم المتاولة من بلاد بعلبك... وسكنوا في برمّانا ومزارع كسروان، وكذلك النصارى جاؤوا من بلاد طرابلس»[١٠٥]، فسكنوا في عرامون وكفور الفتوح وغزير وبلّونة. أمّا المنطقة الجنوبية من جبل لبنان، فكانت في غالبيتها درزية المذهب، مع أقلية شيعية وسنّية ومسيحية. ويتضح من الإحصاءات العثمانية الرسمية أن الخريطة السكانية لجبل لبنان الشمالي والأوسط والجنوبي كان خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر على الشكل التالي[١٠٦]:

---

١٠٠ **بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة**، إعداد وترجمة فاضل بيات، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام، ٣ ج (عمان: لجنة تاريخ بلاد الشام، ٢٠٠٥–٢٠٠٧)، ج ١، ص ٣١٥ و٣١٦.

١٠١ العهدة نظام التزام الريع العقاري.

١٠٢ المعنيون السنّة: التاريخ مجموع وقائع الماضي، وهو أيضًا المعرفة المتعلقة بهذه الوقائع، وهذا التعريف المزدوج لا يعني بطبيعة الحال أن هناك تطابقًا لازمًا بين وقائع الماضي والمعرفة التاريخية بهذه الوقائع. إن معظم حوادث تاريخ لبنان في العصرين الوسيط والحديث قد تناولتها النصوص التاريخية بقالب روائي سردي، من دون أن يسنَد الحادث إلى شاهد عيان أو معْلم أركيولوجي، أو وثيقة مكتوبة، وهذا يُضعف النص التاريخي ويعرّضه للنقد، والتاريخ المعني واحد من المحطات المهمة في تاريخ لبنان الذي لم يشكّل معه حتى صدور كتابنا **تاريخ لبنان أزمة نص ومصطلح وهوية** الذي تناولنا فيه تاريخ الأسرة المعنية، وشككنا في درزيتها، وأثبتنا أنها سنّية المذهب. إضافة إلى ذلك، لم تصدر السلطات المملوكية تقليدًا بإدارة شؤون ناحية معيّنة لرافضي، أكان من الشيعة الإسماعيلية أم من الدروز أو النصيرية، لأنها لم تكن تأتمنهم على حماية الثغور وجباية الأموال وحفظ بيضة الإسلام، ولأنهم أظهر معاندة لسنّة رسول الله (ﷺ)وشرائع دينه من سائر أهل الأهواء، علمًا أن أسرة المعنيين كانت حاضرة في النصوص التاريخية منذ عام ٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م، وأن أحد موفدي البابوية في روما قال في تقريره عام ١٥٧٨م: «... هؤلاء الدروز معروفون ببسالتهم ولطفهم، ومعادون للأتراك، وهم مع ذلك محالفون للأمير العربي، وهذا يعني أنهم معادون للمماليك، ومع ذلك متعاونون مع ممثّل هذه السلطة في ناحية الشوف». انظر: **الموسوعة الفلسفية العربية**، مج ١، ص ٢١٦؛ أبو شقرا، **تاريخ لبنان**، ص ٢٤٧ وما بعدها؛ بطرس فهد، **علاقات الطائفة المارونية بالكرسي الرسولي المقدس** (جونية، لبنان: مطابع الكريم الحديثة، [د. ت.])، ص ٦٦، وأبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، **مجموعة الفتاوى**، تحقيق خيري سعيد (القاهرة: المكتبة التوفيقية، ٢٠٠٠)، مج ١٥، ج ٢٨.

١٠٣ الملكيون أتباع أحد المذاهب المسيحية.

١٠٤ فهد، ص ٦٦ .

١٠٥ الدويهي، ص ٣٩٢. وهذه القرى كانت تابعة لناحية كسروان والجردين .

١٠٦ المكلّف هو دافع الضرائب.

ذكور مكلَّفين[١٠٧]

الناحية	عدد القرى	عدد المكلَّفين	عدد السكان ضرب عدد ٥	المذاهب			
				دروز	نصارى	سنّة	شيعة
بشرّي	٤٠	٩١٩	٤٥٩٥	–	٨٨٢	١١	٢٦
البترون	٤١	١٢٤٩	٦٢٤٥	–	٨٥٢	٢٦١	١٣٦
جبيل	٤٦	٤٨٤	٢٤٢٠	–	٣٥٣	٢٩	١٠٢
كسروان والجردين	٣٦	٨٩٢	٤٤٦٠	٥٢	٣٤٢	١١٣	٣٨٥
المتن	٢٤	٨٠٠	٤٠٠٠	٧٧١	٢	٢٧	–
جرد	١٨	٨٧٦	٤٣٨٠	٧٧٤	–	١٠٢	–
غرب	٣٢	١٧٤٨	٨٧٤٠	١٦٢٤	–	٦٣	٦١
شوف ابن معن وشويزاني	٤٥	٢١٢٥	١٠٦٢٥	٢١٢٥	–	–	–
إقليم الخروب	٢١	٧٦٦	٣٨٣٠	–	–	٧٢٦	٤٠
إقليم التفاح	٢٥	١٢٤٣	٦٢١٥	–	–	–	١٢٤٣
جزين	١	٣٠٠	١٥٠٠	–	–	–	٣٠٠
المجاميع	٣٢٩	١١٤٠٢	٥٧٠١٠	٥٣٤٦	٢٤٣١	١٣٣٢	٢٢٩٣

يُذكر أن القراءة التي قدّمها د. عصام خليفة أخذت في عين الاعتبار صعوبة معرفة انتماء السكان الديني والمذهبي، وكذلك استحالة قراءة أسماء القرى والمكلَّفين. وعليه، فإن تحليل المعلومات متعذّر نظرًا إلى هذا الاعتبار. ومع ذلك، فإن التطور في البنى السكانية قد تفعل ضمن جغرافية جبل لبنان الأوسط والجنوبي، حيث شهد القرن السابع عشر هجرات متتالية للموارنة حطّت رحالها في المتن والجرد والغرب وشوف ابن معن؛ فقرابة عام ١٦١٤ قدّم «ماشنجي»، وهو أحد مبعوثي أمير توسكانا، تقريرًا يقول فيه: «في هذه البلاد عدد كبير من المسيحيين يتوسلون إلى سموك أن ترفقهم بعين العطف»[١٠٨]. ويذكر الأب توما فيتالي في تقريره عن لبنان عام ١٦٤٣ «أن مقاطعة صيدا... فيها المسلم والماروني والملكي واليهودي، والحقول المجاورة للمدينة في أيدي الموارنة والدروز»[١٠٩]. ولم يطُل الوقت على وجود الموارنة في القرى القريبة من صيدا والمعروفة بإقليم التفاح، حتى بدأت هجرة النصارى الملكية إلى الإقليم المذكور والشوفين الحيطي والشويزاني؛ ففي عام ١٦٤٨ زار البطريرك مكاريوس الحلبي مدينة صيدا وعدة قرى في ما يُعرف اليوم بقضاء الشوف، وأخرى في إقليم التفاح. وكان هدف الزيارة تفقّد رعيته في هذه القرى[١١٠]. وإذا

١٠٧ خليفة، ص ٢٢٤–٢٢٧.
١٠٨ بولس قرألي، **فخر الدين المعني الثاني: حاكم لبنان** (بيروت: دار لحد خاطر، ١٩٩٢)، ص ٢٠٥.
١٠٩ **لبنان في السنة ١٦٤٣م** نقلًا عن: **تقرير الاب فيتالي**، عرّبه وعلّق على حواشيه الخوري بولس قرألي (طرابلس: مطبعة صدى الشمال، ١٩٣٨)، ص ١٢.
١١٠ **تاريخ طائفة الروم الملكية والرهبانية المخلصية**، بقلم قسطنطين الباشا المخلصي، ٢ ج (صيدا، لبنان: مطبعة دير المخلص، ١٩٣٨)، ج ١، ص ١٠٨–١٠٩.

كانت الهجرات المارونية إلى بلاد الدروز لم تحصل قبل النصف الأول من القرن السادس عشر، بدليل عدم وجود إشارات اسمية في دفاتر الإحصاء العثمانية تؤكد توطّنهم، علاوة على أن القرى التي ذكرها الأرشيدياكون بولس حول سفرة والده المطران مكاريوس، والذي يعيّنها في إقليم التفاح الذي كان تابعًا للإمارة الدرزية، وهي على وجه التحديد: كفر ملكة، عبرا، برتي، وادي الليمون، كفربيت، كفرحتّا[١١١]، ولم تُشر دفاتر الإحصاء العثماني في القرن السادس عشر إلاّ إلى اثنتين منها هما كفرملكة وكفرحتّا[١١٢]، فإن ذلك يؤكد عدم توطّن مسيحيين في هذه المناطق قبل أواخر القرن السادس عشر. وكان المعنيون، أمراء جبل لبنان، قد مدّوا نفوذهم خارج الإمارة الدرزية، بإجازة شرعية أحيانًا وبمنطق القوة أحيانًا أخرى. وفي وقت تركت السلطات العثمانية فيه عمليات الهجرة المسيحية تأخذ مداها إلى بلاد الدروز خلال القرن السابع عشر، كان هناك خروج للشيعة من جزين وبعض إقليم التفاح، وهذا أمر لا يمكن تفسيره إلاّ في سياق سياسي بقرار من السلطات العثمانية، أو قد يكون نتيجة صراع ديني مع الدروز. ومنذ ذلك الوقت، بدأت المعادلة السكانية تميل إلى الموارنة في غياب نمو سكاني لافت للدروز بسبب تحكّم ثلاثة أسباب معيقة هي: تحريم العقيدة الدرزية الزواج بأكثر من امرأة؛ النقص المتتالي في عدد الذكور من الدروز نتيجة العمليات القتالية؛ «وبوجه الخصوص الطلاق (وهو الحق القاصر على الرجال)، والعقم، ويُعزى سببه إلى أن الدروز يتزوجون عادة في سن مبكرة للغاية بالمقارنة بالمسيحيين»[١١٣]. ومع تنصّر بعض الأمراء الشهابيين، ولاسيما الذين تولّوا حكم جبل لبنان، أخذ الواقع السياسي الماروني يتمظهر بوجه من النفوذ على مسرح سياسة الجبل، حيث كثرت الأديرة التي شكّلت مواقعَ استقطاب للموارنة، وفي المفهوم الجبائي عاملاً متفوقًا لآليات الإنتاج. وبرزت الكنيسة المارونية كحامل لمشروع تغييري كان من أهدافه تحجيم الإقطاع الدرزي والشيعي والماروني على حد سواء، فكان أحد مظاهره في النصف الثاني من القرن الثامن عشر إزاحة الشيعة[١١٤] عن جبّة المنيطرة ووادي علمات وجبيل والبترون والفتوح، وهي قرى في شمال ووسط جبل لبنان لصالح الموارنة، وذلك عبر آليات السلطة السياسية التي بدأت عام ١٧٧١. وفي المرحلة التاريخية ذاتها، وعلى خلفية الصراع الروسي – العثماني والصراع المملوكي – المصري والعثماني، تكبّد الدروز، نتيجة مواجهة حاكم عكا الشيخ ضاهر العمر السنّي المذهب، وكان يقاتل بشيعة صور وبلاد بشارة في معركة النبطية، ١٥٠٠ قتيل، أضف إلى ذلك سلوكًا مذهبيًا تملّك أهل جبل لبنان من طوائف كلها، وكان قد ساهمت فيه السلطة السياسية في الربع الأول من القرن التاسع عشر، وذلك من خلال نفوذ الزعيم الدرزي بشير جنبلاط والأميرين الشهابين يوسف وبشير.

هذا ولم يكن الشيخ بشير بعيدًا عمّا وصل إليه الموارنة من تفوّق في الاقتصاد الذي بات سمة بارزة من خلال ربط نواحي جبل لبنان بشبكة من العلاقات التجارية شكّلت نواتَها قرى دير القمر وجزين وزحله ومدن الساحل. لذلك كانت رغبته في استثمار الحوادث الطائفية في منطقة حلب من الشمال السوري بين السنّة والدروز، فعمل على إقناع الأمير بشير بنقل دروز الجبل الأعلى (جبل السماق)، أو جبل الأربعين كما يُعرف اليوم، فقرر الأمير تسهيل نقلهم إلى المناطق السكنية الدرزية في الإمارة الشهابية، وقد كانوا ٤٠٠ عائلة، مات منهم الكثير[١١٥]. ولكن هذه

١١١ المصدر نفسه، ج ١، ص ١٠٨.

١١٢ خليفة، ص ١٨٢.

١١٣ شوفاليه، ص ١٣٠.

١١٤ **مختصر تاريخ جبل لبنان**، تأليف انطونيوس أبي خطار العينطوريني؛ طبعة الأب اغناطيوس طنوس الخوري؛ نظر فيها وحققها الياس قطار ، مراجع وأصول تاريخية؛ ٣ (بيروت: دار لحد خاطر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٣)، ص ٦٩-٧٠، وأحمد محمود سويدان، «كسروان وجبيل ما بين النزوح الاسلام والهجرة المارونية بين القرن الرابع عشر والثامن عشر،» إشراف أنطوان عبد النور (رسالة ماجستير، الجامعة اللبنانية، قسم التاريخ، ١٩٨٠)، ص ١٠٨-١٠٩ .

١١٥ حيدر أحمد الشهابي، **لبنان في عهد الأمراء الشهابيين: وهو الجزء الثاني والثالث من كتاب الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان**، عني بضبطه ونشره وتعليق حواشيه ووضع مقدمته وفهارسه أسد رستم وفؤاد افرام البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية. قسم الدراسات التاريخية؛ ١٩٦٩ (بيروت: منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، ١٩٦٩)، ق ٢، ص ٥٧٤.

الحمولات الإضافية لم تغيّر شيئًا في المعادلة السكانية، إذ بقي الموارنة هم الأكثر عددًا بين طوائف الجبل.
لقد كان هناك أسباب وجيهة ومنطقية لزعزعة الإقطاع، ولاسيما وجهه الدرزي الذي كان يمسك بجميع الأوراق السياسية في جبل لبنان حتى نهاية الربع الأول من القرن التاسع عشر، بعد أن تراجع دخل الفقراء من الطوائف كافة، وانحصرت الملْكيات العقارية في أيدي قلةٍ من أعيان الجبل. وقد ترافق ذلك مع تعرض الصيغة السياسية في الجبل لعوامل خارجية تمثّلت في ظهور محمد علي باشا في مصر، وتبلور مشروعه السياسي في السيطرة على بلاد الشام على حساب السلطنة العثمانية، وكان عليه لفتح بلاد الشام تهيئة الظروف السياسية في جبل لبنان، التي تجسدت بتحالفه مع حاكم الجبل الأمير بشير، والتخلص من شريكه القوي في السلطة الشيخ بشير جنبلاط، فتمّت تصفيته جسديًا عام ١٨٢٥، وما لبث الجيش المصري أن دخل بلاد الشام ومعه مشروع تفكيك العلاقة بين الدروز والموارنة، الذي ساهم بشكل فاعل في الشرخ الكبير بين الطائفتين، وبخروج الجيش المصري نتيجة إخفاقه، لأنه لم يجد في بلاد الشام السند الذي كان يطلبه[١١٦]، خرج معه حاكم لبنان الأمير بشير الشهابي. وقد مزّقت هذه الحوادث مجتمع جبل لبنان بين دروز يسعون إلى إبقاء صيغة الحكم الإقطاعي، وموارنة يطمحون إلى الاستقلال بكل مفاهيمه في زمنها. ورغم اعتماد نظام يقسم الجبل إلى قائمقاميتين في الفترة ١٨٤٢ – ١٨٥٨، واحدة درزية وأخرى مسيحية، فإن الانقسام كان قد بلغ أشدّه بعد أن دخلت الدول الغربية بطموحاتها السياسية في تأدية دور على صعيد ضرب الإمبراطورية العثمانية، «فقد تركت ثماني سنوات من الاحتلال المصري تراثًا من الشك والريبة بين الفريقين لم يكن من السهل نسيانه»[١١٧].
لقد كانت المقوّمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية كلها جاهزة عند الموارنة؛ ففي السياسة تمكّن الموارنة من بناء علاقات وطيدة مع الغرب الأوروبي، وفي الاقتصاد كان تفوّقهم لافتًا من خلال تملّكهم الأراضي بالطرق الشرعية عن طريق شرائها من الدروز[١١٨]، وفي الاجتماع كان تفوّقهم العددي على الدروز؛ فاستنادًا إلى دراسة أجريت عام ١٨٤٥ في جميع المناطق، استُخلص أن «... المسيحيين كانوا يشكّلون في مجمل المناطق الخاضعة سابقًا لحكم الأمير بشير ما يقارب ٧٩ ٪ المئة من السكان، والدروز ١٢ ٪ منهم... حتى الجنوب الدرزي تم اكتساحه، ففي نطاق الجبل التابع لولاية صيدا هناك ما يقارب ٧٣٪ من المسيحيين مقابل ٢١٪، وفي نطاق المقاطعات المختلفة هناك ٦٩٪ من المسيحيين مقابل ٢٤٪ من الدروز، وفي نطاق الأراضي المنسوبة إلى القائمقامية الدرزية هناك ٦٠٪ من المسيحيين مقابل ٣٢٪ من الدروز[١١٩]».
هذا التحوّل في البنى السكانية، الذي ترافق مع تطوّر الموارنة على صعيد الانتقال التدريجي من الزراعة إلى عمليات السوق المربحة، وظهور الكنيسة المارونية كطرف أساس على ساحة جبل لبنان، وتمزُّق الهيكلية السياسية للإقطاع بسبب تراجع مداخيل القطاع الزراعي، بحيث أصبحت الملْكيات العقارية عبئًا على أصحابها نتيجة الضرائب المفروضة عليها، في حين تطوّرت السوق التجارية وطوّرت معها رموزًا مارونية، كل هذا جعل من مشايخ الإقطاع رهينة لها، عبر الاستدانة منها. وكان للظروف السياسية التي ساهم فيها الخارج من خلال إزاحة الأمراء الشهابيين الموارنة عن إمارة الجبل، ومحاولات الإقطاع الدرزي إعادة الإمساك بصيغته السياسية، ورفض الموارنة لهذه الصيغة، هذه الأسباب مجتمعة أدّت إلى اصطدام الموارنة بالدروز على نحو متقطّع منذ عام ١٨٤٠ حتى الانفجار الكبير عام ١٨٦٠، حين بدأ بعدها حكم الجبل، وبالتالي لبنان، يهيَّأ للموارنة.

---

١١٦ جورج أنطونيوس، **يقظة العرب: تاريخ حركة العرب القومية**، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، ط ٧ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٢)، ص ٩٦.
١١٧ كمال الصليبي، **تاريخ لبنان الحديث**، ط ٤ (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٧٨)، ص ٨٠ .
١١٨ نايل أبو شقرا، **التحولات الاقتصادية والاجتماعية في مجتمع جبل لبنان، ١٥٥٠–١٩٠٠: انموذج عماطور، جزين–اقليم التفاح: دراسة موثقة**، قدم له عصام خليفة وسليمان تقي الدين (لبنان: دار اشارات، ١٩٩٩)، ص ٢٥٠ .
١١٩ شوفاليه، ص ١٣٦–١٣٧.

المراجع

كتب

ابن تيمية الحراني، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم. **مجموعة الفتاوى**. تحقيق خيري سعيد. القاهرة: المكتبة التوفيقية، ٢٠٠٠.

ابن طولون، محمد بن علي. **أعلام الورى بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق الشام الكبرى**. تحقيق محمد أحمد دهمان. دمشق: دار الفكر، ١٩٨٣.

________. **حوادث دمشق اليومية غداة الغزو العثماني للشام، ٩٢٦-٩٥١ هـ: صفحات مفقودة تنشر للمرة الاولى من كتاب مفاكهة الخلان في حوادث الزمان لابن طولون الصالحي الدمشقي**. تحقيق احمد ايبش. دمشق: دار الأوائل، ٢٠٠٢. (اعادة استكشاف سورية؛ ١)

________. **مفاكهة الخلان في حوادث الزمان: تاريخ مصر والشام**. حققه وكتب له المقدمة والحواشي والفهارس محمد مصطفى. ٢ ج. القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ١٩٦٢-١٩٦٤. (تراثنا)

ابن عبد الهادي، أبو عبد الله محمد بن أحمد. **العقود الدرية من مناقب شيخ الاسلام أحمد بن تيمية**. بتحقيق محمد حامد الفقي. صيدا، لبنان؛ بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٥.

ابن فضل الله العمري، أبو العباس أحمد بن يحيى. **التعريف بالمصطلح الشريف**. عني بتحقيقه وضبطه وتعليق حواشيه محمد حسين شمس الدين. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨.

ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن ابي بكر. **إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان**. حققه وكتب هواشيه محمد حامد الفقي. ط ٣. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤.

ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل بن عمر. **البداية والنهاية**. وثّقه وقابل مخطوطاته الشيخان محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود؛ وضع حواشيه أحمد أبو ملحم وآخرين. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١.

ابن كنان، محمد بن عيسى. **المواكب الاسلامية في الممالك والمحاسن الشامية**. تحقيق ودراسة حكمت اسماعيل؛ مراجعة محمد المصري. ٢ ق. دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٢. (وزارة الثقافة والارشاد القومي، احياء التراث العربي؛ ٩٢-٩٣).

ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر. **تاريخ ابن الوردي أو تتمّة المختصر في أخبار البشر**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٦.

________. **تتمة المختصر في أخبار البشر**. القاهرة: جمعية المعارف، ١٨٦٨.

ابن يحيى، ابن صالح بن الحسين صالح. **تاريخ بيروت، وهو أخبار السلف من ذرية بحتر بن علي أمير الغرب ببيروت**. أشرف على تحقيقه فرنسيس هورس اليسوعي، كمال سليمان الصليبي؛ بالاشتراك مع انطوان كوت [وآخرون]. بيروت: دار المشرق، ١٩٨٦.

أبو شقرا، نايل. **تاريخ لبنان أزمة نص ومصطلح وهوية**. بيروت: [المؤلف]، ٢٠٠٤.

________. **التحولات الاقتصادية والاجتماعية في مجتمع جبل لبنان، ١٥٥٠-١٩٠٠: انموذج عماطور، جزين-اقليم التفاح: دراسة موثقة**. قدم له عصام خليفة وسليمان تقي الدين. لبنان: دار اشارات، ١٩٩٩.

أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن علي. **تاريخ أبي الفداء، المسمى، المختصر في أخبار البشر**. علق عليه محمود ديوب. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧.

ـــــــــ. **تقويم البلدان**. بيروت: دار صادر، [د. ت.].

الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد. **كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**. [بيروت: عالم الكتب]، ١٩٨٩.

الأعظمي، محمد حسن. **الحقائق الخفية عن الشيعة الفاطمية والاثني عشرية**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠.

أنطونيوس، جورج. **يقظة العرب: تاريخ حركة العرب القومية**. ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس. ط ٧. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٢.

البرزالي، علم الدين ابو القاسم بن محمد. **المقتفى على كتاب الروضتين**. تحقيق عمر عبد السلام تدمري. صيدا، لبنان؛ بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٦.

بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة. اعداد وترجمة فاضل بيات. ٣ ج. عمان: لجنة تاريخ بلاد الشام، ٢٠٠٥-٢٠٠٧. (منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام)

تاريخ طائفة الروم الملكية والرهبانية المخلصية. بقلم قسطنطين الباشا المخلصي. ٢ ج. صيدا، لبنان: مطبعة دير المخلص، ١٩٣٨.

توا، فادي الياس. **المناخ والأسعار والأمراض في الشام في بلاد عهد المماليك (٦٤٨ـ٩٢٢هـ/ ١٢٥٠ـ١٥١٦م)**. بيروت: [د. ن.]، ١٩٩٨.

الجزري، شمس الدين ابراهيم بن أبي بكر. **تاريخ حوادث الزمان وانبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه المعروف بتاريخ ابن الجزري**. تحقيق عمر عبد السلام تدمري. ٣ ج. صيدا، لبنان: المكتبة العصرية، ٢٠٠٦.

حسين، محمد كامل. **طائفة الإسماعيلية: تاريخها، نظمها، عقائدها**. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٩. (المكتبة التاريخية؛ ٤)

خليفة، عصام. **نواحي لبنان في القرن السادس عشر: التقسيمات الادارية– الديموغرافيا –الأديان والمذاهب**. بيروت: [المؤلف]، ٢٠٠٤.

دفتري، فرهاد. **الإسماعيليون: تاريخهم عقائدهم**. ترجمة سيف الدين القصير. بيروت: دار الساقي، ٢٠١٢.

ـــــــــ. **خرافات الحشاشين وأساطير الإسماعيليين: دراسة في أصول الخرافات وتاريخ وضعها وتطورها منذ العصور الوسطى وحتى القرن التاسع عشر**. ترجمة سيف الدين القصير. دمشق: دار المدى للثقافة والنشر، ١٩٩٦.

الدمشقي، شمس الدين ابو عبد الله محمد الأنصاري. **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**، تحقيق أ. مهران. ليدن: هرازوفتش، ١٩٢٣].

الدواداري، أبو بكر عبد الله بن أيبك. **كنز الدرر وجامع الغرر**. القاهرة: سامي الخانجي، ١٩٦٠-١٩٨٢. ج ٩: **الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر**. تحقيق هانس روبرت رويمر (١٩٦٠).

الدويهي، اسطفان. **تاريخ الأزمنة**. نشره لأول مرة وعلّق حواشيه بطرس فهد. جونيه، لبنان: مطابع الكريم الحديثة ١٩٧٦.

الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد. **من ذيول العبر**. تحقيق محمد رشاد عبد المطلب؛ راجعه صلاح الدين المنجد وعبد الستار أحمد فراج؛ بإشراف لجنة فنية بوزارة الإرشاد والإنباء. الكويت: مطبعة حكومة الكويت، [د. ت.]. (التراث العربي؛ ١٧)

زجليات جبرائيل ابن القلاعي. دراسة وتحقيق بطرس الجميل. بيروت: دار لحد خاطر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٢. (أصول ومراجع تاريخية؛ ٢)
الشهابي، حيدر أحمد. **لبنان في عهد الأمراء الشهابيين: وهو الجزء الثاني والثالث من كتاب الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان**. عني بضبطه ونشره وتعليق حواشيه ووضع مقدمته وفهارسه أسد رستم وفؤاد افرام البستاني. بيروت: منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، ١٩٦٩. (منشورات الجامعة اللبنانية. قسم الدراسات التاريخية؛ ١٩٦٩).
الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم. **الملل والنحل**. تحقيق أحمد فهمي محمد. ط ٧. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤.
شوفاليه، دومينيك. **مجتمع جبل لبنان في عصر الثورة الصناعية في أوروبا**. نقلته عن الفرنسية منى عبدالله عاقوري؛ نظر في الترجمة أحمد بيضون. بيروت: دار النهار، ١٩٩٤.
الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك. **الوافي بالوفيات**. حققه وعلّق عليه أبو عبد الله جلال الأسيوطي. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٠.
الصليبي، كمال. **تاريخ لبنان الحديث**. ط ٤. بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٧٨.
ضو، أنطوان. **تاريخ الأمراء اللمعيين**. بيروت: [د. ن.]، ١٩٩٠.
عز الدين بن الأثير، **الكامل في التاريخ**. بيروت: دار صادر، ١٩٨٢.
العيني، أبو محمد محمود بن أحمد. **السيف المهند في سيرة الملك المؤيد «شيخ المحمودي»**. حققه وقدم له فهيم محمد شلتوت؛ راجعه محمد مصطفى زيادة. القاهرة: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٦-١٩٦٧. (المكتبة العربية. التراث).
غالب، مصطفى. **تاريخ الدعوة الاسماعيلية**. ط ٣. بيروت: دار الأندلس، ١٩٧٩.
الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. **فضائح الباطنية**. اعتنى به وراجعه محمد علي القطب. صيدا؛ بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٠.
الغزي، نجم الدين محمد بن محمد. **الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة**. حققه وضبط نصه جبرائيل سليمان جبور. ط ٢. بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٩.
فضائل الشام. تحقيق أبي عبد الرحمن عادل بن سعد. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١.
فهد، بطرس. **علاقات الطائفة المارونية بالكرسي الرسولي المقدس**. جونية، لبنان: مطابع الكريم الحديثة، [د. ت.].
قرألي، بولس. **فخر الدين المعني الثاني: حاكم لبنان**. بيروت: دار لحد خاطر، ١٩٩٢.
القطار، إلياس. **لبنان في القرون الوسطى، ج. ٢: عهد الفرنج الصليبيين (٤٩٢-٦٩٠ هـ/ ١٠٩٩-١٢٩١ م)**. بيروت: [المؤلف]، ٢٠٠٨.
________. **نيابة طرابلس في عهد المماليك، ٦٨٨ - ٩٢٢ هـ/ ١٢٨٩ - ١٥١٥م**. بيروت: الجامعة اللبنانية، ١٩٩٨. (منشورات الجامعة اللبنانية. قسم الدراسات التاريخية؛ ٤٣).
القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي. **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**. شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه محمد حسين شمس الدين. ١٤ ج. بيروت: دار الكتب العلمية، [د. ت.].
كوربان، هنري. **الشيعة الاثنا عشرية: في الإسلام الإيراني: جوانب روحية وفلسفية**. ترجمة ذوقان قرقوط. ط ٢. القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٣.

________. **عن الإسلام في إيران: مشاهد روحية وفلسفية**. نقله إلى العربية وقدم له وحقق نصوصه نواف الموسوي. بيروت: دار النهار، ٢٠٠٠.

لويس، برنارد. **الحشيشية: الاغتيال الطقوسي عند الإسماعيلية النزارية**. ترجمه وزوده بمدخل تأريخي للإسماعيلية والقرامطة والخلافة الفاطمية سهيل زكار. ط ٢. دمشق؛ بيروت: دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٦.

مختصر تاريخ جبل لبنان. تأليف انطونيوس أبي خطار العينطوريني؛ طبعة الأب اغناطيوس طنوس الخوري؛ نظر فيها وحققها الياس قطار. بيروت: دار لحد خاطر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٣. (مراجع وأصول تاريخية؛ ٣).

المقريزي، أبو العباس أحمد بن علي. **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**. تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١.

المنجد، صلاح الدين. **معجم المؤرخين الدمشقيين وآثارهم المخطوطة والمطبوعة**. بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٧٨.

المنصوري، بيبرس. **زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة**. تحقيق دونالد س. ريتشاردز. بيروت: الشركة المتحدة للنشر، ١٩٨٨.

الموسوعة الفلسفية العربية. رئيس التحرير معن زيادة. ٢ ج في ٣. [بيروت: معهد الانماء العربي، ١٩٨٦-١٩٩٧].

ميرفان، صابرينا. **حركة الإصلاح الشيعي: علماء جبل عامل وأدباؤه من نهاية الدولة العثمانية إلى بداية إستقلال لبنان**. ترجمه عن الفرنسية هيثم الأمين. بيروت: دار النهار للنشر، ٢٠٠٠.

النويري، أبو العباس أحمد بن عبد الوهاب. **نهاية الأرب في فنون الأدب**. تحقيق الباز العريني؛ مراجعة عبد العزيز الأهواني. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢.

نويهض، عجاج. **التنوخي الأمير جمال الدين عبد الله والشيخ محمد أبو الهلال المعروف بالشيخ الفاضل**. ط ٢ مزيدة ومنقحة. بيروت: دار الصحافة، ١٩٦٣.

الهجويري، أبو الحسن علي بن عثمان. **كشف المحجوب**. دراسة وترجمة وتعليق إسعاد عبد الهادي قنديل؛ راجع الترجمة أمين عبد المجيد بدوي. القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة التعريف بالإسلام، ١٩٧٤-١٩٧٥.

اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد. **ذيل مرآة الزمان، تاريخ السنوات ٦٩٧-٧١١هـ/ ١٢٩٧ت-١٣١١م**. تحقيق حمزة عباس. بيروت: جامعة القديس يوسف، ١٩٩٠.

رسالة

سويدان، أحمد محمود. «كسروان وجبيل ما بين النزوح الاسلام والهجرة المارونية بين القرن الرابع عشر والثامن عشر.» إشراف أنطوان عبد النور (رسالة ماجستير، الجامعة اللبنانية، قسم التاريخ، ١٩٨٠).